سَرِيرُ المَنَايَا

أو

«النعش»

الطبعة الأولى
١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م

دار الحسن للنشر والتوزيع
هاتف ٦٤٨٩٧٥ ـ فاكس ٦٤٨٩٧٥ ـ ص.ب ١٨٢٧٤٢
عمان ١١١١٨ ـ الأردن

سَرِيرُ المَنَايَا

أو

«النعش»

بقلم

محمّد شومان الرّملي

دار الحسن
للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

أما بعد؛ فإن في الجنائز عبرة مبَصِّرة، وعظة مؤثرة، وتنبيهاً على المصير المحتوم، مما يُرِقّ القلب، ويُدمع العين، ويُذَكِّر الآخرة، ويوجب الاستعداد لها.

وقد قال رسول الله ﷺ:

«... واتَّبِعوا الجَنائِزَ تُذَكِّرْكُمُ الآخِرَةَ»(1).

وهي تذكر من كان ذا قلب حي، وتذكر أيضاً الغافل؛ إذا أشهدها قلبَه وتدبر حالَها؛ كما قال الله سبحانه عن آياته:

---

(1) سيأتي بتمامه صفحة (٤١).

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

فهٰهنا مرتبتان:

الأولى: تَذَكُّر صاحب القلب الحي؛ لأن من شأنه قبول الموعظة وزيادة التنبه بها.

والتي دونها: تَذَكُّر الغافل؛ إذا ألقى سمعه إلى الموعظة، وأحضر قلبه لها؛ فتدبرها وتفكر فيها.

فقول بعضهم عن الجنائز: وفيها تذكير لا لأهل الغفلة(١)؛ إنما يعنون به من اقتصر على النظر إليها بعينه، ولم يتفكر فيها بقلبه؛ فليتنبه.

وهذا مؤلف كتبته في هذا الباب، وهو وإن كان صغيراً في حجمه؛ فإنني أرجو أن يكون كبيراً في فائدته، وقد سميته:

سرير المنايا

وكان سبب اختياري هذا الاسم، بل ومن أسباب تأليفي الكتاب؛ أبيات من الشعر لمحمد بن يسير، قرأتها في «الكامل» للمبرِّد، وهي:

---

(١) انظر «الخاتمة» صفحة (٨٧).

أيُّ يَوْمٍ عَلَيَّ أَعْـظَمُ مِنْ يَوْ
مٍ بِهِ تُبْـرِزُ الـنُّعـاةُ سَريـري
كُلَّمـا مُرَّ بي على أَهْـلِ نادٍ
كُنْتُ حيناً بِهِمْ كَثيـرَ المُـرورِ
قيـلَ مَنْ ذا على سَريـرِ المَنـايا
قيـلَ هذا مُحَـمَّـدُ بنُ يَسيـرِ

وهـذا هو المقصـود من هذا الكتـاب: الاعتبـار بالجنـائز والتعـظيم لشـأنهـا؛ فيتصـور العبـد نعشه محمولاً على أعناق الـرجـال، وسيوضـع بعد قليل في حفرة مظلمة، لا ممهدة ولا موسدة، ثم يهال عليه التراب، ويترك وحيداً ليس له أنيس إلا عمله.

وقد قيل: **إذا رأيت جنازة فاحسبها أنت، وعدّ باقي الحياة ربحاً.**

ولأبي إسحاق الإلبيري:

كأنِّي بِنَفْسي وهِيَ في السَّكَـراتِ
تُعـالِـجُ أَنْ تَرْقـى إلى اللَّهَـواتِ
وقَـدْ زُمَّ رَحْلي واسْتَقَلَّتْ ركـائِبي
وقَـدْ آذَنَتْني بِالـرَّحيـلِ حُداتي

إلى مَنْـزِلٍ فيهِ عَذابٌ ورَحْمَـةٌ
وكَمْ فيهِ مِنْ زَجْـرٍ لَنـا وعِـظاتِ

ولأبي العتاهية:

فَمـا ليَ لَسْتُ مَشْغـولاً بِنَفْسي
ومـا ليَ لا أخـافُ المَـوْتَ ما لي
كأنَّ مُمَـرَّضـي قَدْ قامَ يَمْـشـي
بِنَـعْـشـيَ بَيْـنَ أَرْبَعَـةٍ عِجـالِ
وخَـلْفـيَ نِسْـوَةٌ يَبْـكينَ شَجْـواً
كأنَّ قُلوبَـهُـنَّ على مَقـالـي[1]
سأقْـنَـعُ ما بَقـيتُ بِقـوتِ يَوْمٍ
ولا أَبْـغـي مُكـاثَـرَةً بِمـالِ

وقد نبه الله تعالى على هذا الأمر، وبينه رسوله ﷺ، وأكثر العلماء والحكماء والشعراء من ذكره والوعظ به، ودعوا إلى تصوره وتخيله ـ كما سيأتي ـ؛ ليحصل الاستعداد له، والتهيؤ لما بعده، قبل حلول الأجل، وانقطاع العمل.

ولا تزال الجنائز والنعوش تمر بالأحياء في كل يوم، ولهم فيها في كل وقت عبرة وعظة.

---

(١) جمع مِقلاة ومِقلى، وهي ما يقلى عليه.

والسعيد من وعظ بنعش غيره، ولم يفوت على نفسه الفكرة فيه، وتخيله في كل وقت وحين؛ كما قيل:

وما يَنْفَكُ نَعْشُ جَنا ... زَةٍ يَمْشي بِهِ نَفَرُ
رأيتُ عَساكِرَ المَوْتى ... فَهاجَ لِعَيْنِيَ العِبَرُ
مَحَلٌ ما عَلَيْهِمْ فِيـ ... ـهِ أَرْدِيَةٌ ولا حُجَرُ
سُقوفُ بُيوتِهِمْ فيها ... هُناكَ اللَّبْنُ والمَدَرُ
عُراةٌ رُبَّما غابوا ... وكانوا طالَما حَضَروا
وكانوا طالَما راحوا ... إلى اللَّذاتِ وابْتَكَروا
فَقَدْ جَدَّ الرَّحيلُ بِهِمْ ... إلى سَفَرٍ هُوَ السَّفَرُ
وقَدْ أَضْحَوْا بِمَنْزِلَةٍ ... يُتَرْجِمُ دونَها الخَبَرُ
تَفَكَّرْ أَيُّها المَغْرو ... رُ قَبْلَ تَفوتُكَ الفِكَرُ
فإِنَّ جَميعَ ما عَظُمْـ ... ـتَ عِنْدَ المَوْتِ مُحْتَقَرُ
فلا تَغْتَرَّ بالدُّنْيا ... فإِنَّ جَميعَها غَرَرُ
وَقُلْ لِذَوي الغُرورِ بِها ... رُوَيْدَكُمُ أَلا انْتَظِروا
فأَقْصى غايَةِ الميعا ... دِ فيما بَيْنَنا الحُفَرُ

فليتنبه العبد للموت؛ كيف يقطع أمانيه، ويفجع بواكيه، وهو في كل ساعة بصدد دواهيه؛ كما قيل:

حَسَمْتَ المُنى يا مَوْتُ حَسْماً مُبَرِّحاً ... وعَلَّمْتَ يا مَوْتُ البُكاءَ البَواكِيا

وَمَـزَّقْـتَـنـا يا مَوْتُ كُلَّ مُمَـزَّقٍ
وعَـرَّفْتَنـا يا مَوْتُ مِنْـكَ الـدَّواهِيا
أفـي كُلِّ يَوْمٍ نَحْـنُ نَلْقى جَنـازَةً
وفي كُلِّ يَوْمٍ مِنْـكَ نَسْمَعُ نَادِيـا

وليبكِ على نفسه قبل أن يُبكى عليه، وليشمر فينظر ما له مما عليه؛ فقد جد به الرحيل وأسرع الموت إليه؛ كما قيل:

لأَبْـكِـيَنَّ على نَفْسـي وَحُقَّ لِيَهْ
يا عَيْنُ لا تَبْـخَـلي عَنّـي بِعَبْـرَتِيَهْ
لأَبْكِـيَنَّ فَقَـدْ جَدَّ الـرَّحِيلُ إلى
بَيْتِ انْقِـطاعي عَنِ الـدُّنْيا ورِحْلَتِيَهْ
يا بَيْتُ بَيْتَ الرَّدى يا بَيْتَ مُنْقَطَعي
يا بَيْتُ بَيْتَ الـرَّدى يا بَيْت غُرْبَتِيَهْ
يا بَيْتُ بَيْتَ النَّوى عَنْ كُلِّ ذي ثِقَةٍ
يا بَيْتُ بَيْتَ الـرَّدى يا بَيْتَ وَحشَتِيَهْ
يا نَأْيَ مُنْتَـجَعـي يا هَوْلَ مُطَّلَعي
يا ضِيقَ مُضَّـجَـعي يا بُعْـدَ شُقَّتِيَهْ
يا نَفْسُ وَيْحَـكِ ما الـدُّنْيا بِباقِيَةٍ
فَشَمِّري واجْعَلي في المَوْتِ فِكْرَتِيَهْ

وإن ظن بعد الأجل، وغره طول الأمل، ولم تسعفه الهمة

بالتوبة وإصلاح العمل؛ فليعلم أن كل ما هو آت قريب؛ فليقطع عنه التسويف، وليعن بالتخويف، وقد قيل:

ما أَسْرَعَ اللَّيْلَ والنَّهارَ على الْـ
إنْسانِ في سَمْعِهِ وفي بَصَرِهْ
وفي خُطاهُ وفي مَفاصِلِهِ
نَعَمْ وفي شَعْرِهِ وفي بَشَرِهْ
الوَقْتُ آتٍ لا شَكَّ فيهِ فلا
تَنْظُرْ إلى طولِهِ ولا قِصَرِهْ
لَمْ يَمْضِ مِنَّا قُدَّامَنا أَحَدٌ
إلَّا ومَنْ خَلْفَهُ على أَثَرِهْ
فلا كَبيرٌ يَبْقى لِكِبْرَتِهِ
ولا صَغيرٌ يَبْقَى على صِغَرِهْ

وقيل:

يُسَوِّفُ المَرْءُ بِتَقْديمِهِ للبِرِّ والأَيَّامُ لا تُنْظِرُهْ

وقيل:

أَتُطالِعُ الآمالَ مُنتَظِراً ولا
تَدْري لَعَلَّ المَوْتَ أَوَّلُ طالِعِ

وقيل:

أَمَّلْتَ أَكْثَرَ مِمَّا أَنْتَ مُدْرِكُهُ
والعُمْرُ لا بُدَّ أَنْ يَفْنى وإِنْ طالا
حَتَّى مَتى أَنْتَ بِالآمالِ مُشْتَبِكٌ
إِذا انْقَضى أَمَلٌ أَمَّلْتَ آمالا

وقيل:

أَلا إِنَّما غَرَّ ابْنَ آدَمَ أَنَّهُ
لَهُ مُدَّةٌ تَخْفى عَلَيْهِ ومِيقاتُ
وكُلُّ بَني الدُّنْيا يُعَلِّلُ نَفْسَهُ
بِمَرِّ شُهورٍ ذاهِباتٍ وساعاتُ

وقيل:

يا مَنْ بِدُنْياهُ اشْتَغَلْ قَدْ غَرَّهُ طولُ الأَمَلْ
الـمَوْتُ يَأْتي بَغْتَةً والقَبْرُ صُنْدوقُ العَمَلْ

وقيل:

أَيا مَنْ قَدْ تَهاوَنَ بِالمَنايا
ومَنْ قَدْ غَرَّهُ الأَمَلُ الطَّويلُ
أَلَمْ تَرَ أَنَّما الدُّنْيا غُرورٌ
وأَنَّ مُقامَنا فيها قَليلُ

وقيل:

أيا بَنـي الـدُّنْـيا ويا جيرَةَ الـ
ـمَـوْتـى إِلـى كَمْ تُغْـفِلونَ السَّبيلْ
إنّـا على ذاكَ لَفـي غَفْـلَةٍ
والمَـوْتُ يُفْني الخَلْقَ جيلاً فَجيلْ
إنِّـي لَمَـغْـرورٌ وإِنَّ الـبِـلى
يُسْـرِعُ في جِسْـمـي قَليلاً قَليلْ
تَزَوَّدَنْ للمَـوْتِ زاداً فَقَـدْ
نادى مُنـاديهِ الـرَّحيلَ الـرَّحيلْ

فأسأل الله تعالى أن يجعل هذا الكتاب مؤدياً لما قصدته، نافعاً كاتبه وقارئه، إنه جواد قدير، وبالإجابة جدير.

وكتب

محمد شومان

٢٤ / شوال / ١٤١٦هـ

١٤ / آذار / ١٩٩٦م

* * *

فصل

في قول الله تعـالى: ﴿كلَّا إذا بَلَغَتِ التَراقي . وقيلَ مَنْ راقٍ . وظَنَّ أَنَّهُ الفِراقُ . والْتَفَّتِ السَّاقُ بالسَّاقِ . إلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ المَساقُ﴾.

قال ابن كثير: يخبر تعالى عن حالة الاحتضار وما عندها من الأهوال ـ ثبتنا الله هنالك بالقول الثابت ـ فقال تعالى: ﴿كلَّا إذا بَلَغَتِ التَّراقي﴾، إن جعلنا «كلا» رادعة؛ فمعناها: لست يا ابن آدم هناك تكذب بما أُخبرت به؛ بل صار ذلك عندك عياناً، وإن جعلنـاهـا بمعنى: حقاً؛ فظاهر؛ أي: حقاً إذا بلغت التراقي؛ أي: انتزعت روحك من جسدك وبلغت تراقيك، و«التراقي»: جمع ترقوة، وهي العظام التي بين ثغرة النحر والعاتق.

وقـوله تعالى: ﴿وقيلَ مَنْ رَاقٍ﴾؛ روى ابن جرير عن ابن زيد؛ قال: ﴿وقيلَ مَنْ رَاقٍ﴾؛ يقول تعالى ذكره: وقال أهله: من ذا يرقيه ليشفيه مما قد نزل به؟ وطلبوا له الأطباء والمداوين، فلم يغنوا عنه من أمر الله الذي قد نزل به شيئاً.

ورَوى عن أبي قلابة؛ قال: هل من طبيب شاف؟

وعن الضحاك؛ قال: هل من طبيب مداوٍ؟

وعن قتادة: أي التمَسوا له الأطباء؛ فلم يغنوا عنه من قضاء الله شيئاً.

وعن ابن زيد؛ قال: أين الأطباء والرقاة؟ من يرقيه من الموت؟!

قال ابن جرير: وقال آخرون: بل هذا من قول الملائكة بعضهم لبعض، يقول بعضهم لبعض: من يرقى بنفسه فيصعد بها؟

ورَوى عن ابن عباس: ﴿**كلَّا إذا بَلَغَتِ التَراقي . وقيلَ مَنْ راقٍ**﴾؛ قال: إذا بلغت نفسه يُرقى بها؛ قالت الملائكة: من يصعد بها؛ ملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب؟

ورَوى مثله عن أبي الجوزاء.

قال ابن جرير: وقوله: ﴿**وظَنَّ أَنَّهُ الفِراقُ**﴾؛ يقول تعالى ذكره: وأيقن الذي قد نزل ذلكِ به أنه فراق الدنيا والأهل والمال والولد.

قال: وقوله: ﴿**والْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ**﴾؛ اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم: معنى ذلك: والتفت شدة

أمر الدنيا بشدة أمر الآخرة.

ورَوى عن ابن عباس: قوله: ﴿والْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾، يقـول: آخر يوم من الدنيا وأول يوم من الآخرة؛ فتلتقي الشدة بالشدة إلا من رحم الله.

ورَوى عن ابن عباس أيضاً: والتفت الدنيا بالآخرة، وذلك ساق الدنيا والآخرة؛ ألم تسمع أنه يقول: ﴿إلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ المَساقُ﴾.

وعن قتــادة: ﴿والْتَفَّتِ السَّــاقُ بِالسَّـاقِ﴾؛ قال: الشـدة بالشدة، ساق الدنيا بساق الآخرة.

ورَوى عن الضحـاك؛ قال: أهل الدنيا يجهزون الجسد، وأهل الآخرة يجهزون الروح[1].

قال ابن جرير: حدثني يونس؛ قال: أخبرنا ابن وهب؛ قال: قال ابن زيد في قوله: ﴿والْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾، قال: العلماء يقـولون فيه قولين؛ منهم من يقول: ساق الآخرة بساق الدنيا. وقال آخرون: قلّ ميت يموت إلا التفت إحدى ساقيه بالأخرى. قال ابن زيد: غير أنَّا لا نشك أنها ساق الآخرة، وقرأ: ﴿إلى رَبِّكَ

(١) في «البحر المحيط»: قال الضحاك: أَسْوُق حاصريه من الإنس والملائكة؛ هؤلاء يجهزونه إلى القبر، وهؤلاء يجهزون روحه إلى السماء.

﴿يَوْمَئِذٍ المَساقُ﴾، قال: لما التفّت الآخرة بالدنيا كان المساق إلى الله، قال: وهو أكثر قول من يقول ذلك.

وروى ابن جرير عن أبي مالك: ﴿والْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾؛ قال: هما ساقاه إذا ضُمَّت إحداهما بالأخرى.

وعن قتادة: أما رأيته إذا ضرب برجله رجله الأخرى؟!

وعنه: ﴿والْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾: ماتت رجلاه فلا يحملانه إلى شيء، وقد كان عليهما جوَّالاً.

قال ابن جرير: وأولى الأقوال في ذلك بالصحة عندي قول من قال: معنى ذلك: والتفت ساق الدنيا بساق الآخرة، وذلك شدة كرب الموت بشدة هول المُطَّلَع، والذي يدل على أن ذلك تأويله قوله: ﴿إلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ المَساقُ﴾، والعرب تقول لكل أمر اشتد: قد شمر عن ساقه، وكشف عن ساقه. اهـ.

وقوله تعالى: ﴿إلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ المَساقُ﴾؛ قال ابن كثير: أي: المرجع والمآب، وذلك أن الروح ترفع إلى السماوات، فيقول الله عز وجل: ردوا عبدي إلى الأرض؛ فإني منها خلقتهم، وفيها أُعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى؛ كما ورد في حديث البراء الطويل[1].

---

(١) سيأتي قريباً.

وقال ابن سِعدي في تفسير الآيات: يعظ تعالى عباده بذكر المحتضَر حال السياق، وأنه إذا بلغت روحه التراقي، وهي العظام المكتنفة لثغرة النحر؛ فحينئذ يشتد الكرب، ويطلب كل وسيلة وسبب يظن أنه يحصل به الشفاء والراحة، ولهذا قال: ﴿وقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾؛ أي: من يرقيه؟ من الرُّقْيَة؛ لأنهم انقطعت آمالهم من الأسباب العادية؛ فتعلقوا بالأسباب الإلهية، ولكن القضاء والقدر إذا حَتَمَ وجاء؛ فلا مَرَدَّ له.

﴿وظَنَّ أَنَّهُ الفِراقُ﴾ للدنيا، ﴿والْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾؛ أي: اجتمعت الشدائد والتفت، وعظم الأمر وصعب الكرب، وأُريدَ أن تخرج الروح من البدن الذي ألفته ولم تزل معه؛ فتساق إلى الله تعالى؛ ليجازيها بأعمالها، ويقررها بفعالها.

قال: فهذا الزجر الذي ذكره الله، يسوق القلوب إلى ما فيه نجاتها، ويزجرها عما فيه هلاكها.

***

فصل

في حال الروح من ساعة الموت إلى حين تصير إلى القبر

عن البراء بن عازب رضي الله عنه؛ قال:

خَرَجْنا مع النَّبيِّ ﷺ في جنازةِ رجلٍ من الأنصار، فانْتَهَيْنا إلى القبرِ ولمّا يُلحَد، فَجَلسَ رسولُ اللَّهِ ﷺ مُسْتَقْبِلَ القِبْلة، وجَلَسْنا حولَه، وكأنَّ على رؤوسنا الطَّيْر، وفي يدِهِ عودٌ يَنْكُتُ في الأرْضِ، فَجَعَلَ ينظُرُ إلى السماءِ، وينظُرُ إلى الأرضِ، وجعلَ يَرفعُ بَصَرَهُ ويخفضُه، ثلاثاً، فقال: «اسْتَعيذوا باللَّهِ مِنْ عَذابِ القَبْرِ»، مرّتين، أو ثلاثاً، ثم قال: «اللهُمَّ إنِّي أعوذُ بِكَ مِنْ عَذابِ القَبْرِ» ثلاثاً، ثمَّ قال:

«إنَّ العَبْدَ المُؤْمِنَ إذا كانَ في انْقِطاعٍ مِنَ الدُّنْيا، وإقبالٍ مِنَ الآخِرَةِ، نَزَلَ إلَيْهِ ملائِكَةٌ مِنَ السَّماءِ، بيضُ الوجوهِ، كأنَّ وجوهَهُمُ الشَّمْسُ، مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أكْفانِ الجَنَّةِ، وحَنوطٌ[1] مِنْ حَنوطِ الجَنَّةِ، حتَّى يَجْلِسوا مِنْهُ مَدَّ البَصَرِ، ثُمَّ يَجيءُ مَلَكُ المَوْتِ عَلَيْهِ السَّلامُ حَتَّى يَجلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ فَيَقولُ: أَيَّتُها النَّفْسُ

---

(١) هو ما يُخلط من الطِّيب لأكفان الموتى وأجسامهم خاصّة. «نهاية».

الـطَّيِّبَـةُ (وفي رواية: المُـطْمَئِنَّةُ)، اخرُجي إلى مَغْفِرَةٍ مِنَ اللّٰهِ ورِضْوانٍ، قالَ: فَتَخْرُجُ تَسيلُ كَما تَسيلُ القَطْرَةُ مِنْ فِي السِّقاءِ، فَيَأْخُـذُها، (وفي رواية: حَتَّى إذا خَرَجَتْ روحُهُ صَلَّى عَلَيْهِ كُلُّ مَلَكٍ بَيْنَ السَّماءِ والأَرْضِ، وكُلُّ مَلَكٍ في السَّماءِ، وفُتِحَتْ لَهُ أَبْوابُ السَّماءِ، لَيْسَ مِنْ أَهْلِ بابٍ إلَّا وَهُمْ يَدْعونَ اللّٰهَ أَنْ يُعْرَجَ بروحِهِ مِنْ قِبَلِهِمْ)، فإذا أَخَذَها لَمْ يَدَعوها في يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَأْخُذوها فَيَجْعَلوها في ذٰلِكَ الكَفَنِ، وفي ذٰلِكَ الحَنوطِ، فَذٰلِكَ قَوْلُهُ تَعالى: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنا وهُمْ لا يُفَرِّطونَ﴾، ويَخْرُجُ مِنْها كأَطْيَبِ نَفْحَةِ مِسْكٍ وُجِدَتْ على وَجْهِ الأَرْضِ».

قالَ: «فَيَصْعَدونَ بها فلا يَمُرُّونَ ـ يعني: بها ـ على مَلأٍ مِنَ الملائِكَةِ إلَّا قالوا: ما هٰذا الرُّوحُ الطَّيِّبُ؟ فَيَقولونَ فُلانُ ابْنُ فُلانٍ بِأَحْسَنِ أَسْمائِهِ الَّتي كانوا يُسَمُّونَهُ بها في الدُّنْيا، حَتَّى يَنْتَهوا بها إلى السَّماءِ الدُّنْيا، فَيَسْتَفْتِحونَ لَهُ، فَيُفْتَحُ لَهُمْ، فَيُشَيِّعُهُ مِنْ كُلِّ سَماءٍ مُقَرَّبوها، إلى السَّماءِ الَّتي تَليها، حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إلى السَّماءِ السَّـابِعَةِ، فَيَقولُ اللّٰهُ عَزَّ وجَلَّ: اكْتُبوا كِتابَ عَبْدي في عِلِّيِّينَ، ﴿وما أَدْراكَ ما عِلِّيُّونَ . كِتابٌ مَرْقومٌ . يَشْهَدُهُ المُقَرَّبونَ﴾ فَيُكْتَبُ كِتابُهُ في عِلِّـيِّينَ، ثُمَّ يُقالُ: أَعيدوهُ إلى الأَرْضِ، فإنِّي وَعَدْتُهُمْ أَنِّي مِنْها خَلَقْتُهُمْ، وفيها أُعيدُهُمْ، ومِنْها أُخْرِجُهُمْ تارَةً أُخرى، قالَ: فَيُرَدُّ إلى الأَرْضِ، وتُعادُ روحُهُ في جَسَدِهِ».

قالَ: «فإنَّهُ يَسْمَعُ خَفْقَ نِعالِ أَصْحابِهِ إذا وَلَّوْا عَنْهُ مُـدْبِرينَ، فَيأْتيهِ مَلَكانِ شَديدا الانْتِهارِ فَيَنْتَهِرانِهِ، ويُجْلِسانِهِ، فَيَقولانِ لَهُ: مَنْ ربُّـكَ؟ فَيقول: رَبِّيَ اللَّهُ، فَيَقولانِ لَهُ: ما دينُكَ؟ فَيَقولُ: دِينِيَ الإِسْلامُ، فَيَقولانِ لَهُ: ما هذا الرَّجُلُ الَّذي بُعِثَ فيكُمْ؟ فَيَقولُ: هُوَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ، فيَقولانِ لَهُ: وما عَمَلُكَ؟ فَيَقولُ: قَرَأْتُ كِتابَ اللَّهِ، فآمَنْتُ بِهِ، وصَدَّقْتُ، فَيَنْتَهِرُهُ فَيَقولُ: مَنْ رَبُّكَ؟ ما دينُكَ؟ مَنْ نَبيُّكَ؟ وهِيَ آخِرُ فِتْنَةٍ تُعْرَضُ على المُؤْمِنِ، فَذلِكَ حينَ يَقولُ اللَّهُ عَزَّ وجَلَّ: ﴿**يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذينَ آمَنوا بِالقَوْلِ الثَّابِتِ في الحَياةِ الدُّنْيا وَفي الآخِرَةِ**﴾، فَيَقولُ: رَبِّيَ اللَّهُ، ودينِيَ الإِسْلامُ، ونَبِيِّي مُحَمَّدٌ ﷺ، فَيُنادي مُنادٍ في السَّماءِ أَنْ: صَدَقَ عَبْدي، فأَفْرِشوهُ مِنَ الجَنَّةِ، وأَلْبِسوهُ مِنَ الجَنَّةِ، وافْتَحوا لَهُ باباً إلى الجَنَّةِ، قالَ: فَيأْتيهِ مِنْ رَوحِها وطيبِها، ويُفْسَحُ لَهُ في قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِهِ».

قالَ: «ويأْتيهِ (وفي رواية: يُمَثَّلُ لَهُ) رَجُـلٌ حَسَنُ الـوَجْهِ، حَسَنُ الثِّيابِ، طَيِّبُ الرِّيحِ، فيَقولُ: أَبْشِرْ بالَّذي يَسُرُّكَ، أَبْشِرْ بِرِضْوانٍ مِنَ اللَّهِ، وجَنَّاتٍ فيها نَعيمٌ مُقيمٌ، هذا يَوْمُكَ الَّذي كُنْتَ تُوعَـدُ، فَيَقـولُ لَهُ: وأَنْتَ فَبَشَّرَكَ اللَّهُ بِخَيْرٍ، مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الـوَجْـهُ يَجيءُ بالخَيْرِ، فَيَقـولُ: أَنـا عَمَلُكَ الصَّالِحُ، فَواللَّهِ ما عَلِمْتُكَ إلَّا كُنْتَ سَريعاً في طاعَةِ اللَّهِ، بَطيئاً في مَعْصِيَةِ اللَّهِ، فَجَزاكَ اللَّهُ خَيْراً.

ثُمَّ يُفْتَحُ لَهُ بابٌ مِنَ الجَنَّةِ، وبابٌ مِنَ النَّار، فَيُقالُ: هذا مَنْزِلُكَ لَوْ عَصَيْتَ اللَّهَ، أَبْدَلَكَ اللَّهُ بِهِ هذا، فإذا رأى ما في الجَنَّة قالَ: رَبِّ عَجِّلْ قِيامَ السَّاعَةِ، كَيْما أَرْجِعُ إلى أَهْلي ومالي، فَيُقالُ لَهُ: اسْكُنْ».

قال: «وإنَّ العَبْدَ الكافِرَ (وفي رواية: الفاجِرَ) إذا كانَ في انْقِطاعٍ مِنَ الدُّنْيا، وإقْبالٍ مِنَ الآخِرَةِ، نَزَلَ إلَيْهِ مِنَ السَّماءِ ملائِكَةٌ غِلاظٌ شِدادٌ، سودُ الوجوهِ، مَعَهُمُ المُسوحُ[1] مِنَ النَّار، فَيَجْلِسونَ مِنْهُ مَدَّ البَصَر، ثُمَّ يَجيءُ مَلَكُ المَوْتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقولُ: أَيَّتُها النَّفْسُ الخَبيثَةُ اخْرُجي إلى سَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وغَضَبٍ، قالَ: فَتَفَرَّقُ في جَسَدِهِ فَيَنْتَزِعُها كَما يُنْتَزَعُ السُّفُّودُ الكَثيرُ الشُّعَبِ مِنَ الصُّوفِ المَبْلولِ، فَتُقَطَّعُ مَعَها العُروقُ والعَصَبُ، فَيَلْعَنُهُ كُلُّ مَلَكٍ بَيْنَ السَّماءِ والأَرْضِ، وكُلُّ مَلَكٍ في السَّماءِ، وتُغْلَقُ أَبْوابُ السَّماءِ، لَيْسَ مِنْ أَهْلِ بابٍ إلَّا وَهُمْ يَدْعونَ اللَّهَ أَلَّا تَعْرُجَ روحُهُ مِنْ قِبَلِهِمْ، فَيَأْخُذُها، فإذا أَخَذَها، لَمْ يَدَعوها في يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَجْعَلوها في تِلْكَ المُسوحِ، ويَخْرُجُ مِنْها كَأَنْتَنِ ريحِ جيفَةٍ وُجِدَتْ على وَجْهِ الأَرْضِ.

فَيَصْعَدونَ بِها، فلا يَمُرُّونَ بِها على مَلأٍ مِنَ الملائِكَةِ إلَّا قالوا: ما هذا الرُّوحُ الخَبيثُ؟ فَيَقولونَ: فُلانُ ابْنُ فُلانٍ، بِأَقْبَحِ

(١) واحدها مِسح، وهو كساء من شعر.

أَسْمائِهِ الَّتي كانَ يُسَمَّى بِها في الدُّنْيا، حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إِلى **السَّماءِ الدُّنْيا**، فَيُسْتَفْتَحُ لَهُ، فلا يُفْتَحُ لَهُ، ثُمَّ قَرَأَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ: **﴿لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوابُ السَّماءِ ولا يَدْخُلونَ الجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الجَمَلُ في سَمِّ الخِياطِ﴾**، فَيَقولُ اللَّهُ عَزَّ وجَلَّ: اكْتُبوا كِتابَهُ في سِجِّينٍ، في الأَرْضِ السُّفْلى، ثُمَّ يُقالُ: أَعيدوا عَبْدي إِلى الأَرْضِ فإِنِّي وَعَدْتُهُمْ أَنِّي مِنْها خَلَقْتُهُمْ، وفيها أُعيدُهُمْ، ومِنْها أُخْرِجُهُمْ تارَةً أُخْرى، فَتُطْرَحُ روحُهُ مِنَ السَّماءِ طَرْحاً حَتَّى تَقَعَ في جَسَدِهِ، ثُمَّ قَرَأَ: **﴿ومَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّما خَرَّ مِنَ السَّماءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوي بِهِ الرِّيحُ في مَكانٍ سَحيقٍ﴾**، فَتُعادُ رُوحُهُ في جَسَدِهِ، قالَ: فإِنَّهُ لَيَسْمَعُ خَفْقَ نِعالِ أَصْحابِهِ إِذا وَلَّوْا عَنْهُ.

ويَأْتيهِ مَلَكانِ شَديدا الانْتِهارِ، فَيَنْتَهِرانِهِ، ويُجْلِسانِهِ، فَيَقولانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقولُ: هاهٍ هاهٍ[1] لا أَدْري، فَيَقولانِ لَهُ: ما دينُكَ؟ فَيَقولُ: هاهٍ هاهٍ لا أَدْري، فَيَقولانِ: فَما تَقولُ في هذا الرَّجُلِ الَّذي بُعِثَ فيكُمْ؟ فلا يَهْتَدي لاسْمِهِ، فَيُقالُ: مُحَمَّدٌ! فَيَقولُ: هاهٍ هاهٍ لا أَدْري، سَمِعْتُ النَّاسَ يَقولونَ ذاكَ! قالَ: فَيُقالُ: لا دَرَيْتَ، ولا تَلَوْتَ، فَيُنادي مُنادٍ مِنَ السَّماءِ أَنْ: كَذَبَ، فأَفْرِشوا لَهُ مِنَ النَّارِ، وافْتَحوا لَهُ باباً إِلى النَّارِ، فَيَأْتيهِ مِنْ حَرِّها وسَمومِها،

---

(١) هي كلمة تقال في الضحك وفي الإبعاد، وقد تقال للتوجع، وهو أليق بمعنى الحديث، والله أعلم. كذا في «الترغيب».

وَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ فيهِ أَضْلاعُهُ.

ويأْتيهِ (وفي رواية: ويُمَثَّـلُ لَهُ) رَجُلٌ قَبيحُ الـوَجْـهِ، قَبيحُ الثِّياب، مُنْتِنُ الرِّيح، فَيَقولُ: أَبْشِرْ بالَّذي يَسوؤُكَ، هذا يَوْمُكَ الَّـذي كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقولُ: وأَنْتَ فَبَشَّرَكَ اللَّهُ بالشَّرِّ، مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الوَجْهُ يَجيءُ بالشَّرِّ! فَيَقولُ: أَنا عَمَلُكَ الخَبيثُ، فَواللَّهِ ما عَلِمْتُكَ إلَّا كُنْتَ بَطيئاً عَنْ طاعَةِ اللَّهِ، سَريعاً إلى مَعْصِيَةِ اللَّهِ، فَجَزاكَ اللَّهُ شَرّاً، ثُمَّ يُقَيَّضُ لَهُ أَعْمى أَصَمُّ أَبْكَمُ في يَدِهِ مِرْزَبَةٌ، لَوْ ضُرِبَ بِها جَبَلٌ كانَ تُراباً، فَيَضْرِبُهُ ضَرْبَةً حَتَّى يَصيرَ بِها تُراباً، ثُمَّ يُعيدُهُ اللَّهُ كَما كانَ، فَيَضْرِبُهُ ضَرْبَةً أُخْرى، فَيَصيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهُ كُلُّ شَيْءٍ إلَّا الثَّقَلَيْنِ، ثُمَّ يُفْتَحُ لَهُ بابٌ مِنَ النَّارِ، ويُمَهَّدُ مِنْ فُرُشِ النَّارِ، فَيَقولُ: رَبِّ لا تُقِمِ السَّاعَةَ»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ؛ قال:

«المَيِّتُ تَحْضُرُهُ الملائِكَةُ، فإذا كانَ الرَّجُلُ صالِحاً قالوا: اخْرُجي أَيَّتُها النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ! كانَتْ في الجَسَدِ الطَّيِّبِ، اخْرُجي حَميدَةً وأَبْشِري بِرَوْحٍ ورَيْحانٍ ورَبٍّ غَيْرِ غَضْبانَ، فلا يَزالُ يُقالُ

---

(١) حديث صحيح على شرط الشيخين، كذا قال الحاكم، ووافقه الذهبي، وأقرهما الألباني في «أحكام الجنائز»، وقد خرج الحديث فيه بالروايات المذكورة، وثلاث وثلاثين زيادة، فمن شاء فليراجعه؛ فإنه لن يجده في غير الكتاب المذكور، فجزى الله الشيخ خيراً.

لَها حَتَّى تَخْرُجَ، ثُمَّ يُعْرَجُ بِها إِلى السَّماءِ؛ فَيُفْتَحُ لَها، فَيُقالُ: مَنْ هذا؟ فَيَقولونَ: فُلانٌ. فَيُقالُ: مَرْحَباً بِالنَّفْسِ الطَّيِّبَةِ كانَتْ في الجَسَدِ الطَّيِّبِ، ادْخُلي حَميدَةً، وأَبْشِري بِرَوْحٍ ورَيْحانٍ ورَبٍّ غَيْرِ غَضْبانَ، فَلا يَزالُ يُقالُ لَها ذلِكَ حَتَّى يُنْتَهى بِها إِلى السَّماءِ الَّتي فيها اللَّهُ عَزَّ وجَلَّ.

وإِذا كانَ الرَّجُلُ السُّوءُ قالَ: اخْرُجي أَيَّتُها النَّفْسُ الخَبيثَةُ! كانَتْ في الجَسَدِ الخَبيثِ، اخْرُجي ذَميمَةً، وأَبْشِري بِحَميمٍ وغَسَّاقٍ، وآخَرَ مِنْ شَكْلِهِ أَزْواجٌ، فلا يَزالُ يُقالُ لَها ذلِكَ حَتَّى تَخْرُجَ، ثُمَّ يُعْرَجُ بِها إِلى السَّماءِ، فلا يُفْتَحُ لَها، فَيُقالُ: مَنْ هذا؟ فَيُقالُ: فُلانٌ. فَيُقالُ: لا مَرْحَباً بِالنَّفْسِ الخَبيثَةِ، كانَتْ في الجَسَدِ الخَبيثِ، ارْجِعي ذَميمَةً؛ فإِنَّها لا تُفْتَحُ لَكِ أَبْوابُ السَّماءِ، فَيُرْسَلُ بِها مِنَ السَّماءِ، ثُمَّ تَصيرُ إِلى القَبْرِ».

هذا الشطر الأول من الحديث، والشطر الثاني: عن النبي ﷺ قال:

«إِنَّ المَيِّتَ يَصيرُ إِلى القَبْرِ، فَيُجْلَسُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ في قَبْرِهِ غَيْرَ فَزِعٍ ولا مَشْعوفٍ، ثُمَّ يُقالُ لَهُ: فيمَ كُنْتَ؟ فَيَقولُ: كُنْتُ في الإِسْلامِ، فَيُقالُ لَهُ: ما هذا الرَّجُلُ؟ فَيَقولُ: مُحَمَّدٌ رَسولُ اللهِ ﷺ، جاءَنا بِالبَيِّناتِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَصَدَّقْناهُ. فَيُقالُ لَهُ: هَلْ رَأَيْتَ اللَّهَ؟ فَيَقولُ: ما يَنْبَغي لأَحَدٍ أَنْ يَرى اللَّهَ، فَيُفْرَجُ لَهُ فُرْجَةٌ قِبَلَ

النَّارِ، فَيَنْظُرُ إِلَيْها يَحْطِمُ بَعْضُها بَعْضاً، فَيُقالُ لَهُ: انْظُرْ إلى ما وَقاكَ اللَّهُ، ثُمَّ يُفْرَجُ لَهُ قِبَلَ الجَنَّةِ، فَيَنْظُرُ إلى زَهْرَتِها وما فيها، فَيُقالُ لَهُ: هذا مَقْعَدُكَ، ويُقالُ لَهُ: على اليَقينِ كُنْتَ، وعَلَيْهِ مِتَّ، وعَلَيْهِ تُبْعَثُ إنْ شاءَ اللَّهُ.

وَيُجْلَسُ الرَّجُلُ السُّوءُ في قَبْرِهِ فَزِعاً مَشْعوفاً، فَيُقالُ لَهُ: فيمَ كُنْتَ؟ فَيَقولُ: لا أَدْري، فَيُقالُ لَهُ: ما هذا الرَّجُلُ؟ فَيَقولُ: سَمِعْتُ النَّاسَ يَقولونَ قَوْلاً فَقُلْتُهُ، فَيُفْرَجُ لَهُ قِبَلَ الجَنَّةِ، فَيَنْظُرُ إلى زَهْرَتِها وما فيها، فَيُقالُ لهُ: انْظُرْ إلى ما صَرَفَ اللَّهُ عَنْكَ، ثُمَّ يُفْرَجُ لَهُ فُرْجَةٌ قِبَلَ النَّارِ، فَيَنْظُرُ إِلَيْها يَحْطِمُ بَعْضُها بَعْضاً، فَيُقالُ لَهُ: هذا مَقْعَدُكَ، على الشَّكِّ كُنْتَ، وعَلَيْهِ مِتَّ، وعَلَيْهِ تُبْعَثُ إنْ شاءَ اللَّهُ تعالى»(١).

وعن أبي هريرة أيضاً رضي الله عنه؛ أن النبي ﷺ قال:

«إذا حُضِرَ المُؤْمِنُ أَتَتْهُ ملائِكَةُ الرَّحْمَةِ بِحَريرَةٍ بَيْضاءَ، فَيَقولونَ: اخْرُجي راضِيَةً مَرْضِيّاً عَنْكِ؛ إلى رَوْحِ اللَّهِ ورَيْحانٍ ورَبٍّ غَيْرِ غَضْبانَ، فَتَخْرُجُ كأَطْيَبِ ريحِ المِسْكِ؛ حَتَّى أَنَّهُ لَيُناوِلُهُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً [يَشُمُّونَهُ]، حَتَّى يَأْتونَ بِهِ بابَ السَّماءِ؛ فَيَقولونَ:

---

(١) أخرجه ابن ماجه؛ الشطر الأول برقم (٤٢٦٢)، والشطر الثاني برقم (٤٢٦٨)، وأخرجه أحمد (٢ / ٣٦٤ - ٣٦٥ و٦ / ١٤٠)، وحسن سنده الألباني في «تخريج المشكاة» (رقم ١٦٢٨).

ما أَطْيَبَ هذِهِ الرِّيحَ الَّتي جاءَتْكُمْ مِنَ الأَرْضِ! فَيأْتونَ بِهِ أَرْواحَ المُؤْمِنينَ، فَلَهُمْ أَشَدُّ فَرحاً بِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ بِغائِبِهِ يَقْدَمُ عَلَيْهِ، فَيَسْأَلونَهُ ماذا فَعَلَ فُلانٌ؟ ماذا فَعَلَ فُلانٌ؟ فَيقولونَ: دَعُوهُ فإِنَّهُ كانَ في غَمِّ الدُّنْيا، فإِذا قالَ: أَما أَتاكُمْ؟ قالوا: ذُهِبَ بِهِ إِلى أُمِّهِ الهاوِيَةِ.

وإِنَّ الكافِرَ إِذا احْتُضِرَ؛ أَتَتْهُ ملائِكَةُ العَذابِ بِمِسْحٍ، فَيَقولونَ: اخْرُجي ساخِطَةً مَسْخوطاً عَلَيْكِ، إِلى عَذابِ اللَّهِ عَزَّ وجَلَّ، فَتَخْرُجُ كأَنْتَنِ ريحِ جيفَةٍ، حَتَّى يَأْتونَ بِهِ بابَ الأَرْضِ، فَيَقولونَ: ما أَنْتَنَ هذِهِ الرِّيحَ! حَتَّى يَأْتونَ بِهِ أَرْواحَ الكُفَّارِ»[1].

ومن حديث أبي هريرة أيضاً؛ قال:

«إِذا خَرَجَتْ روحُ المُؤْمِنِ تَلَقَّاها مَلَكانِ يُصْعِدانِها».

قال حماد (هو ابن زيد راوي الحديث): فذكر من طيب ريحها، وذكر المسك.

قال: «ويَقولُ أَهْلُ السَّماءِ: روحٌ طَيِّبَةٌ جاءَتْ مِنْ قِبَلِ

---

(١) أخرجه النسائي (٤ / ٨ ـ ٩) وهذا لفظه، وابن حبان (٧٣٣ ـ موارد)، والحاكم (١ / ٣٥٢ ـ ٣٥٣)، وصححه، ووافقه الذهبي، وأقرهما الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣ / ٢٩٤)، والزيادة لابن حبان والحاكم.

الأَرْضِ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْكِ وعلى جَسَدٍ كُنْتِ تَعْمُرِينَهُ ، فَيُنْطَلَقُ بِهِ إلى رَبِّهِ عَزَّ وجَلَّ ، ثُمَّ يَقولُ : انْطَلِقوا بِهِ إلى آخِرِ الأَجَلِ » .

قال : «وإنَّ الكافِرَ إذا خَرَجَتْ روحُهُ ـ قال حمَّاد : وذكر من نتنها ، وذكر لعناً ـ ويَقولُ أَهْلُ السَّماءِ : روحٌ خَبيثَةٌ جاءَتْ مِنْ قِبَلِ الأَرْضِ » . قال : «فيُقالُ : انْطَلِقوا بِهِ إلى آخِرِ الأَجَلِ[١]» .

قال أبو هريرة : فَرَدَّ رسول الله ﷺ رَيْطَةً[٢] كانت عليه على أنفه ، هكذا[٣] .

* * *

---

(١) (إلى آخر الأجل) ؛ المراد بالأول : انطلقوا بروح المؤمن إلى سدرة المنتهى ، والمراد بالثاني : انطلقوا بروح الكافر إلى سجين ؛ فهي منتهى الأجل ، ويحتمل أن المراد إلى انقضاء أجل الدنيا . قاله القاضي ؛ كما في «شرح مسلم» للنووي (١٧ / ٢٠٥) .

(٢) قال النووي : (الريطة) : هي ثوب رقيق ، وقيل : هي الملاءة ، وكان سبب ردها على الأنف بسبب ما ذكر من نتن ريح روح الكافر .

(٣) أخرجه مسلم (٢٨٧٢) .

فصل

فيما تقوله الجنازة

إذا احتملت على أعناق الرجال

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال:

«إذا وُضِعَتِ الجَنازَةُ فاحْتَمَلَها الرِّجالُ على أَعْناقِهِمْ، فإِنْ كانَتْ صالِحَةً قالَتْ: قَدِّموني، قَدِّموني، وإِنْ كانَتْ غَيْرَ صالِحَةٍ قالَتْ [لأَهْلِها]: يا وَيْلَها! أَيْنَ يَذْهَبونَ بِها؟ يَسْمَعُ صَوْتَها كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا الإِنسانَ، ولَوْ سَمِعَها الإِنْسانُ لَصَعِقَ»(1).

قال ابن الأثير في «النهاية»: (الويل): الحزن والهلاك والمشقة من العذاب، وكل من وقع في هلكة دعا بالويل، ومعنى النداء فيه: يا حزني، ويا هلاكي، ويا عذابي! احْضُرْ؛ فهذا وقتك وأوانك.

وقال الحافظ في «الفتح»: وأضاف الويل إلى ضمير الغائب حملاً على المعنى؛ كراهية أن يضيف الويل إلى نفسه.

---

(1) أخرجه البخاري (٣ / ١٨٢ و١٨٤ و٢٤٤ - فتح) وغيره.

ويؤيد قول الحافظ هذا رواية النسائي[1] عن أبي هريرة رضي الله عنه ؛ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

«إذا وُضِعَ الرَّجُلُ الصَّالحُ على سَريرِهِ؛ قالَ: قَدِّموني، قَدِّموني، وإذا وُضِعَ الرَّجُلُ (يعني: السُّوءُ) على سَريرِهِ؛ قالَ: يا وَيْلي! أَيْنَ يَذْهَبونَ بي؟!».

فليتخيل العبد نفسه وهو ينادي عليها بالهلاك والشقاء ـ إن كان غير صالح والعياذ بالله ـ فيقول: «يا وَيْلي! أَيْنَ تَذْهَبونَ بي؟»، وليتفكر أين يذهبون به؟! فيعلم أن الذهاب إلى حفرة من حفر النار، فيفرش له من النار، ويفتح له باب إلى النار، ويلبس من النار؛ كما تقدم.

فليكن هذا النداء على بال العبد لا يغفل عنه أبداً؛ فإن ذلك ـ بإذن الله تعالى ـ يزع عن التقصير، ويوجب التوبة والإنابة، ويدعو إلى المسارعة بالخير في فرصة الإمكان.

وبالمقابل؛ ليجعل العبد على باله قول الصالح: «قَدِّموني، قَدِّموني»، ويتفكر إلى أي شيء يقدمونه؟! فيعلم أنه إلى روضة من رياض الجنة، فيفرش من الجنة، ويفتح له باب إلى الجنة،

---

(١) وهي في «سننه» (٤ / ٤١)، وهي صحيحة وعلى شرط مسلم؛ كما في «أحكام الجنائز» (مسألة ٤٩).

ويلبس من الجنة.

وفي «التبصرة»:

يا مَنْ يُؤَمِّـلُ أَنْـتَ مُنْـتَـظِرٌ
أَمَـلاً يَطولُ ولَـسْـتَ تُنْـتَـظَرُ
ماذا تَقـولُ وأَنْـتَ في غُصَصٍ
ماذا تَقـولُ وأَنْـتَ مُحْـتَـضَـرُ
ماذا تَقـولُ وقَـدْ وُضِـعْـتَ على
ظَهْـرِ الـسَّـريـرِ وأَنْـتَ تُبْـتَـدَرُ
ماذا تَقـولُ وأَنْـتَ في جَدَثٍ
ماذا تَقـولُ وفَـوْقَـكَ الـمَـدَرُ
ماذا تَقـولُ وقَـدْ لَحِـقْـتَ بِمـا
يَجْـري عَلَيْهِ الـرِّيحُ والـمَـطَرُ

ولأبي العتاهية:

كأَنَّـكَ قَدْ صِرْتَ في حُفْـرَةٍ
وصـارَ عَلَيْكَ الـثَّـرَى والـمَـدَرْ
فلا تَنْسَ يَوْمـاً تُسَـجَّـى على
سَريـرِكَ فَوْقَ رِقـابِ الـنَّـفَـرْ
وقَـدِّم لِذاكَ فإنَّ الـفَـتـى
لَهُ ما يُقَـدِّمُ لا ما يَذَرْ

وله:

مَنْ أَحَسَّ لي أَهْلَ القُبورِ ومَنْ رأى
مَن أَحَسَّهُمْ لي بَيْنَ أَطْباقِ الثَّرى
مَنْ أحَسَّ لي مَنْ كُنْتُ آلَفُهُ ويأْ
لَفُني فقَدْ أنْكَرْتُ بُعْدَ المُلْتقى
مَنْ أَحَسَّهُ إذْ ما يُعالِجُ غُصَّةً
مُتَشاغِلاً بِعِلاجِها عَمَّن رَعى
مَنْ أحَسَّهُ لي فَوْقَ ظَهْرِ سَريرِهِ
يَمْشي بِهِ نَفَرٌ إلى بَيْتِ البلى
يا أيُّها الحَيُّ الَّذي هُوَ مَيِّتٌ
أَفْنَيْتَ عُمْرَكَ في التَّعَلُّلِ والمُنى
لا تَشْغَلَنَّكَ لَوْ وَلَيْتَ عَنِ الَّذي
أَصْبَحْتَ فيهِ لا لَعَلَّ ولا عَسى

فصل

وقوله ﷺ: (لصعق)؛ قال الحافظ: أي لغشي عليه من شدة ما يسمعه، وربما أُطلق ذلك على الموت (يعني: الصَّعق)، والضمير في «يسمعه» راجع إلى دعائه بالويل؛ أي: يصيح بصوت منكر لو سمعه الإنسان لغشي عليه.

قال: ويحتمل أن يحصل الصعق من سماع كلام الصالح ؛ لكونه غير مألوف.

(فائدة): ترجم الإمام البخاري في «صحيحه» لهذا الحديث بقوله: باب حمل الرجال الجنازة دون النساء.

قال الحافظ: قال ابن رشيد: ليست الحجة من حديث الباب بظاهرة في منع النساء؛ لأنه من الحكم المعلق بشرط[1]، وليس فيه أن لا يكون الواقع إلا ذلك، ولو سُلِّم فهو من مفهوم اللقب[2].

قال الحافظ: ثم أجاب بأن كلام الشارع مهما أمكن حمله على التشريع لا يحمل على مجرد الإخبار عن الواقع، ويؤيده العدول عن المشاكلة في الكلام؛ حيث قال: «إذا وضعت»، «فاحتملها الرجال»، ولم يقل: فاحتُملت. فلما قطع احتملت عن مشاكلة «وضعت»؛ دل على قصد تخصيص الرجال بذلك، وأيضاً فجواز ذلك للنساء وإن كان يؤخذ بالبراءة الأصلية؛ لكنه

---

(١) يعني: «إذا وُضِعَتِ الجَنازَةُ... قالَتْ...».

(٢) يعني: لو سلمنا وأهملنا أنه من الحكم المعلق بشرط فهو من مفهوم اللقب؛ يعني: أنه ضعيف عند علماء الأصول، والمراد بمفهوم اللقب هنا: أن منطوق حمل الجنازة وقع على لقب الرجال، فمفهومه أن النساء لا يحملنها.

معارض بأن في الحمل على الأعناق والأمر بالإسراع مظنة الانكشاف غالباً، وهو مباين للمطلوب منهن من التستر، مع ضعف نفوسهن عن مشاهدة الموتى غالباً، فكيف بالحمل؟! مع ما يتوقع من صراخهن عند حمله ووضعه، وغير ذلك من وجوه المفاسد. انتهى ملخصاً.

وقال النووي في «شرح المهذب»[1]: قال الشافعي في «الأم» والأصحاب: لا يحمل الجنازة إلا الرجال؛ سواء كان الميت ذكراً أو أنثى. ولا خلاف في هذا؛ لأن النساء يضعفن عن الحمل، وربما انكشف منهن شيء لو حملن.

قال الحافظ: ولأن الجنازة لا بد أن يشيعها الرجال؛ فلو حملها النساء لكان ذلك ذريعة إلى اختلاطهن بالرجال؛ فيفضي إلى الفتنة. اهـ.

قلت: هذا بالنسبة لحمل النساء الجنازة، وأما تشييعهن لها؛ فسيأتي نهي النبي ﷺ عنه، وأنه للتنزيه وليس للتحريم، وإلا لاكتُفي به كدليل على المسألة السابقة.

(فائدة أخرى): قال النووي في «شرح المهذب»[2]: قال

---

(١) (٥ / ٢٧٠).

(٢) (٥ / ٢٧٠).

الشافعي والأصحاب رحمهم الله: حمل الجنازة **فرض كفاية**، ولا خلاف فيه. قال الشافعي والأصحاب: وليس **في** حملها دناءة وسقوط مروءة؛ بل هو بر وطاعة وإكرام للميت، **وفَعَلَه الصحابة** والتابعون، ومَن بعدهم من أهل الفضل.

***

فصل

في الأمر باتباع الجنائز
وأنه مما يجب للمسلم على أخيه

عن البراء بن عازب رضي الله عنه؛ قال: «أَمَرَنا النَّبيُّ ﷺ بِسَبْعٍ ونَهانا عَنْ سَبْعٍ: أَمَرَنا بِاتِّباعِ الجَنائِزِ، وعِيادَةِ المَريضِ، وإِجابَةِ الدَّاعي، ونَصْرِ المَظْلومِ، وإِبْرارِ القَسَمِ، ورَدِّ السَّلامِ، وتَشْميتِ العاطِسِ» الحديث[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «خَمْسٌ تَجِبُ لِلْمُسْلِمِ على أَخيهِ: رَدُّ السَّلامِ، وتَشْميتُ العاطِسِ، وإِجابَةُ الدَّعْوَةِ، وعِيادَةُ المَريضِ، واتِّباعُ الجَنائِزِ»[2].

وعنه رضي الله عنه، عن النبي ﷺ؛ قال:

---

(١) أخرجه البخاري (٣ / ١١٢ - فتح) وفي مواضع أخرى، ومسلم (٢٠٦٦)، وغيرهما.

(٢) أخرجه البخاري (٣ / ١١٢ - فتح)، ومسلم (٢١٦٢) واللفظ له، وغيرهما.

«ثلاثٌ كُلُّهُنَّ حَقٌّ على كُلِّ مُسْلِمٍ : عِيادَةُ المَريضِ ، وشُهودُ الجَنازَةِ، وتَشْميتُ العاطِسِ إذا حَمِدَ اللَّهَ عَزَّ وجَلَّ»[1].

***

(١) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (رقم ٥١٩)، وهو في «السلسلة الصحيحة» برقم (١٨٠٠).

فصل

في أجر من شهد جنازة حتى يصلِّي عليها وأجر من شهدها حتى تدفن

عن عامر بن سعد بن أبي وقاص؛ أنه كان قاعداً عند عبد الله بن عمر؛ إذ طلع خباب صاحب المقصورة، فقال: يا عبد الله بن عمر! ألا تسمع ما يقول أبو هريرة؟ إنه سمع رسول الله ﷺ يقول:

«مَنْ خَرَجَ مَعَ جَنازَةٍ مِنْ بَيْتِها وصَلَّى عَلَيْها، ثُمَّ تَبِعَها حَتَّى تُدْفَنَ كانَ لَهُ قِيراطانِ مِنْ أَجْرٍ، كُلُّ قِيراطٍ مِثْلُ أُحُدٍ، ومَنْ صَلَّى عَلَيْها ثُمَّ رَجَعَ كانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُحُدٍ».

فأرسل ابن عمر خبَّاباً إلى عائشة يسألها عن قول أبي هريرة، ثم يرجع إليه فيخبره ما قالت، وأخذ ابن عمر قبضة من حصباء المسجد يقلبها في يده؛ حتى رجع إليه الرسول؛ فقال: قالت عائشة: صدق أبو هريرة. فضرب ابن عمر بالحصى الذي كان في يده الأرض، ثم قال: لقد فَرَّطنا في قراريطَ كثيرة[1].

---

(١) أخرجه البخاري (١ / ١٠٨ و٣ / ١٩٢ و١٩٦ ـ فتح)، ومسلم (٩٤٥) واللفظ له، وغيرهما.

وفي لفظ البخاري الأول: «مَنِ اتَّبَعَ جَنازَةَ مُسْلِمٍ إيماناً واحْتِساباً»، وترجم له بقوله: باب اتِّباع الجنائز من الإيمان.

(تنبيه): قال الألباني في «أحكام الجنائز»: هذا الفضل في اتباع الجنائز؛ إنما هو للرجال دون النساء؛ لنهي النبي ﷺ لهن عن اتباعها، وهو نهي تنزيه، فقد قالت أم عطية رضي الله عنها: كنا نُنْهى (وفي رواية: نهانا رسول الله ﷺ) عن اتباع الجنائز، ولم يَعْزِم علينا.

قال الألباني: أخرجه البخاري ومسلم والسياق له، وأبو داود وابن ماجه وأحمد، وكذا البيهقي والإسماعيلي والرواية الأخرى له، وهي رواية للبخاري تعليقاً.

* * *

فصل
في أن المقصد الأعظم من اتباع الجنائز هو تذكر الآخرة

عن أبي سعيد رضي الله عنه، عن النبي ﷺ؛ قال:

«عُودوا المَريضَ، واتَّبِعوا الجَنائِزَ؛ تُذَكِّرْكُمُ الآخِرَةَ»(1).

ويروى أن الحسن رحمه الله شيَّع جنازةً؛ فجلس على شفير القبر فقال: إن أمراً هٰذا آخره لحقيق أن يُزهد في أوله، وإن أمراً هٰذا أوله لحقيق أن يُخاف آخره.

يعني رحمه الله: إن الأمر الذي أوله الموت ثم القبر؛ ينبغي أن يخاف آخره؛ وهو الآخرة والعرض على الله تعالى. فهذا من تذكر الآخرة المراد بحديث النبي ﷺ.

ويروى عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه؛ أنه رأى رجلاً يضحك في جنازة؛ فقال: **تضحك وأنت تتبع الجنازة؟ والله لا أكلمك أبداً!**

---

(1) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٤ / ٧٣)، وأبو يعلى الموصلي في «مسنده» (رقم ١١١٤)، والبخاري في «الأدب المفرد» (رقم ٥١٨)، وغيرهم، وهو في «السلسلة الصحيحة» (رقم ١٩٨١).

(**تنبيه**): ينبغي لمتبع الجنازة أن يحرص على هذا المقصد العظيم، وهو تذكر الآخرة، وأن لا يشغله عنه شاغل، ومن الشواغل ما اعتاد الناس فعله أثناء اتباع الجنائز؛ من البدع المحدثة، والرسوم المخترعة.

(**فائدة**): شهود الجنائز من أعظم الأسباب الموجبة لرقة القلب ودمع العين، وذلك لأنها - كما تقدم - تُذَكِّر الآخرة، وتَذَكُّر الآخرة هو السبب الأعظم لرقة القلب؛ كما نبه عليه ربنا عز وجل بقوله في شأن الصلاة:

﴿وإنَّها لَكَبيرةٌ إلَّا على الخاشعينَ . الَّذين يَظُنُّونَ أنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِم وأنَّهُم إليهِ راجِعُونَ﴾ [البقرة: ٤٥ و ٤٦].

وقد جمع النبي ﷺ الثلاثة (أعني: رقة القلب، ودمع العين، وتذكر الآخرة) في حديثه؛ فيما رواه عنه أنس بن مالك رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ:

«كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيارَةِ القُبورِ، ألَا فَزُورُوها؛ فَإِنَّهُ يَرِقُّ القَلْبُ، وَتَدْمَعُ العَيْنُ، وَتُذَكِّرُ الآخِرَةَ» الحديث(١).

والعكس بالعكس؛ فنسيان الموت والغفلة عن الجنائز

---

(١) أخرجه الحاكم (١ / ٣٧٦) بإسناد حسنه الألباني في «أحكام الجنائز» (مسألة ١١٥).

والقبور سبب لطول الأمل، وطول الأمل تنشأ عنه قسوة القلب، وسيأتي مزيد توضيحه في خاتمة الكتاب، إن شاء الله تعالى.

فلا علاج لقسوة القلب وطول الأمل مثل شهود الجنائز.

ويروى أن رجلاً قال لأم الدرداء: إني لأجد في قلبي داءً لا أجد له دواء؛ أجد قسوة شديدة، وأملاً بعيداً. قالت: **اطلع في القبور، واشهد الموتى.**

* * *

فصل
في النهي عن اتباع الجنائز
بصوت أو نار

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ؛ قال:

«لا تُتْبَعُ الجَنائِزُ بِصَوْتٍ ولا نارٍ»[1].

قال المناوي[2]: (لا تتبع) بضم أوله وفتح ثالثه: خبر بمعنى النهي. (الجنازة بصوت)؛ أي: مع صوت، وهو النياحة. (ولا نار)؛ فيكره اتباعها بنار في مجمرة أو غيرها؛ لأنه من شعائر الجاهلية، ولما فيه من التفاؤل، ومن ثم قيل: يحرم[3].

(تنبيه): قال شيخنا حفظه الله: ويلحق بذلك رفع الصوت بالذكر أمام الجنازة؛ لأنه بدعة، ولقول قَيس بن عُبَاد:

كان أصحاب النبي ﷺ يكرهون رفع الصوت عند الجنائز.

قال: أخرجه البيهقي وابن المبارك في «الزهد» وأبو نعيم

---

(١) أخرجه أبو داود (٣١٧١) وغيره، وقواه الألباني لشواهده في «أحكام الجنائز» (مسألة ٤٧).

(٢) «فيض القدير» (٦ / ٣٨٧).

(٣) وهو الصواب، ولأن الأصل في النهي المطلق أنه للتحريم.

بسند رجاله ثقات .

قال : ولأن فيه تشبهاً بالنصارى ؛ فإنهم يرفعون أصواتهم بشيء من أناجيلهم وأذكارهم مع التمطيط والتلحين والتحزين .

قال : وأقبح من ذلك تشييعها بالعزف على الآلات الموسيقية أمامها عزفاً حزيناً ؛ كما يُفعل في بعض البلاد الإسلامية تقليداً للكفار .

* * *

فصل

في أن الراكب يسير خلف الجنازة والماشي حيث شاء منها

عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ:

«الرَّاكِبُ يَسيرُ خَلْفَ الجَنازَةِ، والماشي يَمْشي [حَيْثُ شاءَ مِنْها]؛ خَلْفَها وأَمامَها وعَنْ يَمينِها وعَنْ يَسارِها قَريباً مِنْها، والسِّقْطُ يُصَلَّى عَلَيْهِ، ويُدْعى لِوالِدَيْهِ بِالمَغْفِرَةِ والرَّحْمَةِ»(١).

* * *

---

(١) أخرجه أبو داود (٣١٨٠) بلفظه، والترمذي (١٠٣١)، وقال: «حسن صحيح»، والنسائي (٤ / ٥٥ ـ ٥٦)، وابن ماجه (١٤٨١ و١٥٠٧)، والحاكم (١ / ٣٦٣)، والزيادة لثلاثتهم، وأخرجه غيرهم. وصححه الحاكم على شرط البخاري، ووافقه الذهبي، وأقرهما الألباني في «أحكام الجنائز» (مسألة ٥٠).

فصل

في أن المشي أفضل من الركوب

قال الألباني في «أحكام الجنائز»: لأنه المعهود عنه ﷺ، ولم يرد أنه ركب معها؛ بل قال ثوبان رضي الله عنه: إن رسول الله ﷺ أُتِيَ بدابَّة وهو مع الجنازة فأبى أن يركبها، فلما انصرف أُتي بدابَّة فركب، فقيل له؟ فقال:

«إِنَّ الملائِكَةَ كانَتْ تَمْشي، فَلَمْ أَكُنْ لأَرْكَبَ وهُمْ يَمْشونَ، فَلَمَّا ذَهَبوا رَكِبْتُ».

أخرجه أبو داود والحاكم والبيهقي، وقال الحاكم: «صحيح على شرط الشيخين»، ووافقه الذهبي، وهو كما قالا. هذا كلام الألباني.

(تنبيه هام): قال الألباني: وأما حمل الجنازة على عربة أو سيارة مخصصة للجنائز، وتشييع المشيعين لها وهم في السيارات؛ فهذه الصورة لا تشرع البتة، وذلك لأمور:

الأول: أنها من عادات الكفار، وقد تقرر في الشريعة أنه لا يجوز تقليدهم فيها، وفي ذلك أحاديث كثيرة جدّاً.

الثاني: أنها بدعة في عبادة، مع معارضتها للسنة العملية في

حمل الجنازة، وكل ما كان كذلك من المحدثات؛ فهو ضلالة اتفاقاً.

الثالث: أنها تفوّت الغاية من حملها وتشييعها، وهي تَذَكُّر الآخرة؛ كما نص على ذلك رسول الله ﷺ: «... واتَّبِعوا الجَنائِزَ تُذَكِّرْكُمُ الآخِرَةَ».

قال: إن تشييعها على تلك الصورة؛ مما يفوت على الناس هذه الغاية الشريفة تفويتاً كاملاً أو دون ذلك، فإنه مما لا يخفى على البصير أن حمل الميت على الأعناق، ورؤية المشيعين لها وهي على رؤوسهم؛ أبلغ في تحقيق التذكر والاتعاظ من تشييعها على الصورة المذكورة، ولا أكون مبالغاً إذا قلت: إن الذي حمل الأوروبيين عليها إنما هو خوفهم من الموت وكل ما يُذَكِّر به؛ بسبب تغلب المادة عليهم وكفرهم بالآخرة.

الرابع: أنها سبب قوي لتقليل المشيعين لها والراغبين في الحصول على الأجر؛ ذلك لأنه لا يستطيع كل أحد أن يستأجر سيارة ليشيعها.

الخامس: أن هذه الصورة لا تتفق من قريب ولا من بعيد مع ما عرف عن الشريعة المطهرة السمحة من البعد عن الشكليات والرسميات، لا سيما في مثل هذا الأمر الخطير: الموت! والحق أقول: إنه لو لم يكن في هذه البدعة إلا هذه المخالفة؛ لكفى

ذلك في ردها، فكيف إذا انضم إليها ما سبق بيانه من المخالفات والمفاسد وغير ذلك مما لم أذكره؟! انتهى كلام الألباني.

قلت: ويستثنى مما ذكر؛ إذا كانت المقبرة بعيدة بعداً لا يمكن معه تحمل مشقة التشييع على الأعناق، ولو فُرِضَ وقوعه؛ فإنه لن يخرج في تشييع الجنازة في مثل هذه الحالة إلا نفر قليل، وهذا يفوت مقصد «تذكر الآخرة» من باب أولى، ففي مثل هذه الحالة يجوز نقلها بالسيارة - إن لم يكن مستحباً أو واجباً - مع اجتناب البدع والرسوم؛ لكن يشترط ألا يتعدى الأمر إلى نقلها بالسيارة من البيت إلى مكان الصلاة، فمثل هذا هو الذي لا يشرع، وهو واضح كما ترى.

* * *

فصل

في أن المشي خلف الجنازة أفضل من المشي أمامها

قال شيخنا: لأنه مقتضى قوله ﷺ: «واتَّبِعوا الجَنائِزَ»، وما في معناه.

قال: ويؤيده قول علي رضي الله عنه: المشي خلف الجنازة أفضل من المشي أمامها؛ كفضل صلاة الرجل في جماعة على صلاته فذّاً.

قال: أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» والطحاوي والبيهقي وأحمد وكذا ابن حزم في «المحلى» وسعيد بن منصور من طريقين عنه، قال الحافظ في أحدهما: «وإسناده حسن، وهو موقوف له حكم المرفوع؛ لكن حكى الأثرم عن أحمد؛ أنه تكلم في إسناده».

قال شيخنا: لكنه يتقوى بالطريق الآخر.

* * *

فصل

في الإسراع بالجنازة

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ؛ قال:

«أَسْرِعوا بِالجَنازَةِ؛ فَإِنْ تَكُ صالِحَةً فَخَيْرٌ تُقَدِّمونَها إِلَيْهِ، وإِنْ تَكُ سِوى ذٰلِكَ فَشَرٌّ تَضَعونَهُ عَنْ رِقابِكُمْ»[1].

قال النووي في «المجموع»[2]: اتفق العلماء على استحباب الإسراع بالجنازة؛ إلا أن يُخاف من الإسراع انفجار الميت أو تغيره فيُتأنّى.

وقال شيخنا بالوجوب ـ تبعاً لابن حزم ـ؛ لظاهر الأمر (أسرعوا بالجنازة).

وقال (أعني شيخنا حفظه الله): ويجب الإسراع في السير بها سيراً دون الرَّمَل.

قلت: قيده بـ «دون الرمل»؛ لحديث أبي بكرة الآتي، وانظر رواية أبي داود له، والكلام عليها.

(فائدة): يؤخذ من الحديث ـ كما قال النووي ـ ترك صحبة

---

(١) أخرجه البخاري (٣ / ١٨٣ ـ فتح)، ومسلم (٩٤٤)، وغيرهما.

(٢) (٥ / ٢٧١).

أهل البطالة غير الصالحين.

وعن عبد الرحمن بن يونس؛ قال: شهدت جنازة عبد الرحمن بن سمرة، وخرج زياد يمشي بين يدي السرير، فجعل رجال من أهل عبد الرحمن ومواليهم يستقبلون السرير ويمشون على أعقابهم، ويقولون: رويداً رويداً بارك الله فيكم، فكانوا يَدُبُّون دَبيباً، حتى إذا كنا ببعض طريق المِرْبَد لَحِقَنا أبو بكرة على بغلة، فلما رأى الذي يصنعون حمل عليهم ببغلته، وأهوى إليهم بالسوط، وقال: خَلُّوا، فوالذي أكرم وجه أبي القاسم ﷺ؛ لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ وإنا لنكاد نَرْمُلُ بها رَمَلاً[1]، فانبسط القوم[2].

وفي رواية أبي داود: «لقد رأيتنا ونحن نَرْمُل رَمَلاً مع رسول الله ﷺ».

قلت: وهذا محمول على اللفظ الأول: «وإنا لنكاد نرمل بها رملاً»، أو هو محمول ـ كما قال النووي ـ على الحاجة إلى زيادة

---

(١) الرَّمَل: الهرولة، ورَمَل يَرْمُل رَمَلاً ورَمَلاناً؛ إذا أسرع في المشي وهز مَنْكِبيه، وهو فوق المشي ودون العدو. انظر ـ إن شئت ـ: «النهاية» و«اللسان».

(٢) أخرجه أبو داود (٣١٨٣)، والنسائي (٤ / ٤٢ ـ ٤٣) واللفظ له، وغيرهما، وصححه الحاكم والذهبي والنووي، وكذا الألباني.

الإسراع في بعض الأحوال.

وعن عطاء؛ قال: حضرنا مع ابن عباس جنازة ميمونة بسَرِفَ، فقال ابن عباس: هٰذه زوجةُ النبيِّ ﷺ، فإذا رفعتم نعشها فلا تزعزعوها ولا تزلزلوها وارفقوا... الأثر[1].

قال الحافظ في «الفتح»[2]: قوله: (فإذا رفعتم نعشها) بعين مهملة وشين معجمة: السرير الذي يوضع عليه الميت[3]. قوله: (فلا تزعزعوها)؛ بزاءين معجمتين وعينين مهملتين، و«الزعزعة»: تحريك الشيء الذي يرفع. وقوله (ولا تزلزلوها)؛ «الزلزلة»: الاضطراب. قوله: (وارفقوا)؛ إشارة إلى أن مراده السير الوسط المعتدل.

قال النووي[4]: وهذا محمول على خوف مفسدة من الإسراع.

(فائدة): قال الحافظ: ويستفاد منه أن حرمة المؤمن بعد موته باقية كما كانت في حياته.

---

(١) أخرجه البخاري (٩/١١٢ ـ فتح)، ومسلم (١٤٦٥)، وغيرهما.

(٢) (٩ / ١١٣).

(٣) قال ابن الأثير: سُمي سرير الميت نعشاً لارتفاعه، وإذا لم يكن عليه ميت محمول فهو سرير. «نهاية».

(٤) «المجموع» (٥ / ٢٧٢).

فصل

فيما يقوله الماشي مع الجنازة والحال التي ينبغي أن يكون عليها

قال النـووي في «الأذكـار»: يستحب له أن يكون مشتغلاً بذكر الله تعالى، والفكر فيما يلقاه الميت، وما يكون مصيره، وحاصل ما كان فيه، وأن هذا آخر الدنيا ومصير أهلها، وليحذر كل الحذر من الحديث بما لا فائدة فيه؛ فإن هذا وقت فكر وذكر يقبح فيه الغفلة واللهو والاشتغال بالحديث الفارغ، فإن الكلام بما لا فائدة فيه منهي عنه في جميع الأحوال؛ فكيف في هذا الحال؟!

قال: واعلم أن الصواب المختار ما كان عليه السلف رضي الله عنهم: السكوت في حال السير مع الجنازة؛ فلا يرفع صوتاً بقـراءة ولا ذكـر، ولا غير ذلك، والحكمة فيه ظاهرة، وهي أنه أسكن لخاطره، وأجمع لفكره فيما يتعلق بالجنازة، وهو المطلوب في هذا الحال، فهذا هو الحق، ولا تغترَّنَّ بكثرة مَن يخالفه، فقد قال أبو علي الفضيل بن عياض رضي الله عنه ما معناه: الزم طرق الهدى، ولا يضرك قلة السالكين، وإياك وطرق الضلالة، ولا تغترَّ بكثرة الهالكين.

قال: وقد رُوِّينا في «سنن البيهقي» ما يقتضي ما قلته[1]. وأما ما يفعله الجهلة من القراءة على الجنازة بدمشق وغيرها من القراءة بالتمطيط وإخراج الكلام عن موضوعه؛ فحرام بإجماع العلماء، وقد أوضحت قبحه، وغلظ تحريمه، وفسق من تمكن من إنكاره فلم ينكره، في كتاب «آداب القُرّاء».

(فائدة): قال الغزالي: من آداب حضور الجنائز حُسن الظن بالميت وإن كان فاسقاً، وإساءة الظن بالنفس وإن كان ظاهرها الصلاح؛ فإن الخاتمة مخطرة لا تُدرى حقيقتها، ولذلك روي عن عمر بن ذرّ؛ أنه مات واحد من جيرانه، وكان مسرفاً على نفسه، فتجافى كثير من الناس عن جنازته، فحضرها هو وصلى عليها، فلما دُلِّي في قبره وقف على قبره وقال: يرحمك الله يا أبا فلان! فلقد صحبت عمرك بالتوحيد، وعفرت وجهك بالسجود، وإن قالوا: مذنب وذو خطايا؛ فمن منا غير مذنب وغير ذي خطايا؟!

(١) يريد قول قيس بن عباد المتقدم (صفحة ٤٤)، قال ابن علان: «قال الحافظ: هذا حديث موقوف صحيح، أخرجه أبو داود والحاكم».

قلت: أخرجه أبو داود (٢٦٥٦)، والحاكم (٢ / ١١٦)، وعندهما: «يكرهون الصوت عند القتال».

وأما لفظ البيهقي (٤ / ٧٤) فهو: «كان أصحاب رسول الله ﷺ يكرهون رفع الصوت عند الجنائز، وعند القتال، وعند الذكر».

فصل

في أنجع الطرق في تحقيق الاتعاظ بالجنائز

أنجع الطرق وأنفعها في ذلك: أن يتفكر العبد في حال الميت وما يصير إليه، وما كان عليه في الدنيا.

ويتخيل نفسه أنه هو صاحب الجنازة، وأنه هو المحمول إلى القبر ـ كما نبهت عليه في المقدمة ـ، فما كان يحب أن يجده أمامه؛ فليفعله الآن وهو في فرصة الإمكان؛ كما قيل:

يا أَخا المَيْتِ الَّذي شَيَّعْتَهُ
فَحَثَى التُّرْبَ عَلَيْهِ وَرَجَعْ
لَيْتَ شِعْري ما تَزَوَّدْتَ مِنَ الزْ
زَادِ يا هذا لِهَوْلِ المُطَّلَعْ
يومَ يُهْدوكَ مُحِبُّوكَ إلى
ظُلْمَةِ القَبْرِ وضِيقِ المُضْطَجَعْ

ويروى عن بشر؛ أنه كان إذا ذُكر عنده الموت يقول: ينبغي لمن يعلم أنه يموت؛ أن يكون بمنزلة من جمع زاده فوضعه على رحله، لم يدع شيئاً مما يحتاج إليه إلا وضعه عليه.

ويروى أن الحسن نظر إلى جنازة يزدحم الناس عليها فقال:

ما لكم تزدحمون؟ ها هي سارية في المسجد؛ اقعدوا تحتها، واصنعوا ما كان يصنع حتى تكونوا مثله.

وقال لشيخ في جنازة: أترى هذا الميت لو رجع إلى الدنيا كان يعمل صالحاً؟ قال: نعم. قال: إن لم يكن ذاك؛ فكن أنت ذاك.

وقال أبو عبيدة الخوَّاص عند قبر: **حتى متى تشيع غادياً أو رائحاً إلى ربه؟ تجعله في لحد، وتحثي عليه التراب، أما والله لتكوننَّه عن قريب.**

ومن مواعظ ابن الجوزي: ابكِ على نفسك قبل أن يُبكى عليك، وتفكـر في سهم قد صُوِّب إليك، **وإذا رأيت جنـازة فاحسبها أنت، وإذا عاينت قبراً فتوهمه قبرك، وعدَّ باقي الحياة ربحاً.**

ومنهـا: **يا من يشيـع ببـدنه الميت! فأما قلبه ففي البيت،** أتُخَلِّي بين المودود والدود، وتعود إلى المعاصي حين تعود؟! هلاَّ أجلت بالبال ذكر البالي؟! وقلت للنفس الجاهلة: هذا لي. من زار القبـور والقلب غافل، وسعى بين الأجداث والفكر ذاهل، وشغله عن الاعتبار لهو شاغل؛ فهو قتيل قد أسكره القاتل.

ومنها: أَنَسِيَ العاصي قبيح مكتوبه؟! ألا يدّخر من خصبه لأيام جدوبه؟! ألا يتفكر في فراقه لمحبوبه؟! **ألا يتذكر النعش**

قبل ركوبه؟!

ومنها: يا من لا يردعه ما يسمعه! يا من لا يقنعه ما يجمعه! أمَا القبر عن قريب موضعه؟! أمَا اللحد عن قريب مضجعه؟! أمَا يرجع عنه من يشيعه، ويأخذ ما جمعه أجمعه؟!

ولأبي العتاهية:

بَلِيتَ وَمَا تَبْلَى ثِيابُ صِباكا
كَفاكَ نَذِيرُ الشَّيْبِ فِيكَ كَفاكا

ألا أيُّها الفاني وقَدْ حانَ حينُهُ
أَتَطْمَعُ أَنْ تَبْقَى فَلَسْتَ هُناكا

تَسَمَّعْ وَدَعْ مَنْ أفسَدَ الغَيُّ سَمْعَهُ
كأنِّي بداعٍ قَدْ أَتَى فَدَعاكا

وَرُبَّ أمانٍ لِلْفَتَى نَصَبَتْ لَهُ الـ
ـمَنِيَّةُ فِيما بَيْنَهُنَّ شِراكا

أراكَ وما تَنْفَكُّ تُهْدي جَنازَةً
ويوشِكُ أَنْ تُهْدَى هُديتَ كَذاكا

أَلا لَيْتَ شِعْري كَيْفَ أَنْتَ إذا القُوَى
وَهَتْ وَإذا الكَرْبُ الشَّديدُ عَلاكا

تَمُوتُ كَما ماتَ الَّذينَ نَسِيتَهُم
وَتُنْسَى وَيَهْوَى الحَيُّ بَعْدُ سِواكا

فصل

هذا في حال تشييع الجنازة، أما فيما بعد إذا كان بينه وبين نفسه؛ فليتذكر ما مضى مما رآه من نعوش الأقران والإخوان، والأصحاب والجيران، وليتصور كيف سيقوا إلى القبور بعد ما كانوا فيه من النشاط والغبطة والسرور، وأن حاله سيكون كحالهم، ومصيره كمصيرهم.

وبالمناسبة أقول: أقرب النعوش بي عهداً نعش الجارة الفاضلة «عائدة القاسم» (ت ١٤١٦هـ) رحمها الله تعالى، كانت في أحسن حال من الصحة والعافية والشباب، ولم تتزوج بعد، فاجأها مرض الموت؛ فلم يمهلها؛ ففاجأ موتها كل من عرفها، ولقد رثيت والله لحالها، وتأثرت لها أعظم تأثر، فأسأل الله تعالى أن يرحمها، ويغفر لها، ويتجاوز عنها.

ومن النعوش التي تركت في نفسي أثراً بالغاً: نعش أخي في الله الصابر «فخر البخاري» (ت ١٤١٤هـ)، فوجىء رحمه الله في سن التاسعة والعشرين بسرطان في الدم لم يمهله طويلاً، ولقد كانت خاتمته - فيما ظهر لنا - من أحسن خاتمة يتمناها عباد الله الصالحون، ولولا خشية الإطالة؛ لذكرت قصة موته كاملة، وما قاساه في مرضه، وعجيب صبره، وحسن بلائه، فرحمه الله تعالى، وتجاوز عنه، وأعظم له المثوبة.

ومنها: نعش الآمر بالمعروف، الناهي عن المنكر، الحبيب «خالد عيسى» (ت ١٤١٠هـ)، شاب في السادسة والعشرين، بغتته المنية وهو في أحسن حال من الطاعة لله تعالى، والتجهز للموت وكثرة ذكره، حتى لقد كان قبيل موته ليكثر الاتصال بي بالهاتف يذكرني الموت، وأحياناً يكون اتصاله قريب منتصف الليل، رحمه الله تعالى، وغفر له، آمين.

ومنها ـ وما هو منا ببعيد ـ: نعش شيخنا المجاهد «عبد الله عزَّام» (ت ١٤١٠هـ)، وإن لم أكن حاضراً نعشه؛ إلا أنني رأيته في الصور، ولقد كاد يغلبني الإغماء؛ لمجرد سماع خبر مقتله، فرحمه الله تعالى من داعية مجاهد لم أر ـ والله ـ مثله في تألهه وتعبده، ولا في غضبه لله تعالى وغيرته على محارمه، فجزاه الله خيراً، وأجزل له المثوبة، وبلّغه المنزلة العالية.

ومن أكثر النعوش التي تركت في نفسي أثراً بالغاً: نعش والدة زوجتي (ت ١٤١١هـ) رحمها الله تعالى، لقد كان لها في حياتها صولات وجولات، ولاسمها رنة وطنة، وشهرة في أقاربها وجيرانها ومعارفها؛ حتى إنهم ليذكرونها باسمها دون كنيتها، مع أن الغالب في أيامنا في مثلها؛ أن تذكر بكنيتها؛ لكن لقوتها وصولتها يقال: «رحاب»! حتى إن أولادها لينسبون إليها: «ابن رحاب»، «بنت رحاب»، بل إن زوجها ينسب إليها أحياناً!

كانت في الثانية والأربعين، ولها خمس بنات، وثلاثة أولاد، وزوجتي «أم عبد الله» أكبر الثمانية، أُجِّلَت الإنجاب ثماني سنوات! ثم بدا لها أن تحمل، فلما تمت التسعة أشهر؛ ولدت ذكراً ميتاً، فاشتغلوا ساعة بالفكر في دفنه؛ كيف؟ وأين؟

أثناء ذلك نزفت المسكينة وماتت! وقد كانت حُذِّرت من الولادة في البيت بسبب «السكري»؛ فأبت من أجل أجلها، أسأل الله تعالى ذا الرحمة الواسعة أن يرحمها، ويغفر لها، ويتجاوز عنها.

هذا، فقد أحببت أن أسطر ذكر هذه النعوش الخمسة التي تركت في نفسي أثراً كبيراً؛ لعل معتبراً يعتبر بها، ويَذْكُر من الجنائز ما كان له أثر في نفسه؛ فتكون العبرة أكبر وأبلغ، ثم عسى أن يسخر الله تعالى من يدعو لأصحابها دعوة خالصة من قلبه، تنفعهم في قبورهم ويوم معادهم، ﴿وَما ذَٰلِكَ على اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾.

ولأبي العتاهية:

أَخٌ طالما سَرَّني ذِكْرُهُ
فَقَدْ صِرْتُ أَشْجى لَدى ذِكْرِهِ

وقَـدْ كُنْـتُ أَغْـدو إلى قَصْـرِهِ
فَقَـدْ صِرْتُ أَغْـدو إلـى قَبْـرِهِ
وكُـنْـتُ أُرانـي غَنِـيّاً بِهِ
عَنِ الـنَّـاسِ لَوْ مُدَّ في عُمْـرِهِ
وكُـنْـتُ مَتى جِئْتُ في حاجَـةٍ
فأَمْـري يَجـوزُ على أَمْـرِهِ
فَتـىً لَمْ يُخَـلِّ الـنَّـدَى ساعَـةً
على يُسْـرِهِ كانَ أَوْ عُسْـرِهِ
تَظَلُّ نَهـارَكَ في خَيْرِه
وتَـأْمَـنُ لَيْلَكَ مِنْ شَرِّه
أَتَـتْـهُ الـمَـنِـيَّةُ مُغْـتـالَـةً
رُوَيْداً تُخَـتِّـلُ من سِتْـرِهِ
فَلَمْ تُغْـنِ أَجْـنـادُهُ حَوْلَـهُ
ولا الـمُـسْـرِعـونَ إلى نَصْـرِهِ
وأَصْـبَـحَ يَغْـدو إلـى مَنْـزِلٍ
سَحـيـقٍ تُؤُنِّـيَ في حَفْـرِهِ
تُغَـلِّقُ بِالـتُّـرْبِ أَبْـوابُـهُ
إلـى يَوْمِ يُؤْذَنُ في حَشْـرِهِ
وخَـلَّى الـقُـصـورَ الَّـتي شادَهـا
وحَـلَّ مِنَ الـقَـبْـرِ في قَعْـرِهِ

وَيَــدَّلَ بِالــبُــسْطِ فَرْشَ الــثَّــرى
وريحَ ثَرى الأَرْضِ مِنْ عِطْرِهِ
أَخـــو سَفَـــرٍ ما لَهُ أَوْبَـــةٌ
غَريبٌ وإِنْ كانَ في مِصْــرِهِ

وفي «المدهش»:

إخواني! دنا رحيلكم، وقد بان سبيلكم، وسيهجركم خليلكم.

يا مُقــيــمــينَ ارْحَـلوا لِلذَّهــابِ
بِشَفيــرِ القُبــورِ حَطُّ الــرِّكــابِ
نَعِّــمــوا الأَوْجُــهَ الحِســانَ فَمــا
صَوْنُــكُمــوهَــا إِلَّا لِعَفْــرِ التُّــرابِ
والْــبَــســوا ناعِــمَ الــثِّــيابِ فَفي الـ
حُفْــرَةِ تَعْــرونَ عَنْ جَميعِ الثِّيابِ
قَدْ نَعَــتْــكَ الأَيَّامُ نَعْــياً صَحيحــاً
بِفِــراقِ الإِخْــوانِ والأَصْــحــابِ

تذكر يا من جنى ركوب الجنازة، وتصور ما من مأوى في طول المفازة.

وفيه: يا هذا! اشتغلت بفنون تعليلك عن ذكر تحويلك، وستسلب من أخيك وخليلك، وعلى تخبيطك وتخييلك.

كأنَّـــكَ بِالـمُـضِـيِّ إلـى سَبيلِكْ
وقَـــدْ جَدَّ الـمُـجَـهِّــزُ في رَحيلِكْ
وجيءَ بِغـاسِـلٍ فاسْتَـعْـجَـلوهُ
بِقـولِـهِـمْ لَهُ افْـرُغْ مِنْ غسيلِكْ
ولَـمْ تَحْـمِــلْ سِوى كَفَـنٍ وقُـطْنٍ
إلَـيْهِـمْ مِنْ كَثيرِكَ أو قَليلِكْ
وقَــدْ مَدَّ الـرِّجـالُ إلَيْـكَ نَعْشاً
فأنْـتَ عَلَيْـهِ مَمْدودٌ بِطولِـكْ
وصَــلَّوْا ثُمَّ إنَّـهُـمُ تَداعـوا
لِحَمْلِكَ في بُكـورِكَ أَوْ أَصيلِكْ
ولَـمَّـا أَسْـلَمـوكَ نَزَلْـتَ قَبْـرَكْ
ومَنْ لَكَ بِالسَّـلامَـةِ في نُزولِـكْ
أَعـانَـكَ يَوْمَ تَدْخُـلُهُ رَحـيمٌ
رَؤوفٌ بِالـعِـبـادِ على دُخـولِـكْ
فَسَـوْفَ تُجـاوِرُ الـمَـوْتـى طَويلاً
فَدَعْـنــي مِنْ قَصيرِكَ أَوْ طَويلِكْ
أَخي إنِّي نَصَحْتُـكَ فاسْتَمِـعْ لي
وبِـالـلَّـهِ اسْتَعَنْتُ على قَبـولِـكْ
أَلَـسْـتَ تَرى الـمَـنـايا كُلَّ يَوْمٍ
تُصـيبُـكَ في أَخيكَ وفي خَليلِكْ

ولأبي العتاهية:

أيا جامِعي الـدُّنْيا لِمَنْ تَجْمَعـونَهـا
وتَبْنـونَ فيهـا الـدُّورَ لا تَسْكُنـونَهـا
ألا رُبَّ آمـالٍ إذا قِيْلَ قَدْ دَنَـتْ
رأَيْتَ صُروفَ الدَّهْرِ قَدْ حُلْنَ دُونَها
لَعَمْـرُكَ ما تَنْفَـكُّ تُهْدي جَنازَةً
إلى عَسْكَرِ الأَمْواتِ حَتَّى تكونَها

وله:

أيا بانِـيَ الـدُّنْيا لِغَيْرِكَ تَبْتَـني
ويا جامِـعَ الـدُّنْيا لِغَيْرِكَ تَجْمَـعُ
أَلَـمْ تَرَ أَنَّ الـمَـرْءَ يَحْبِسُ مالَـهُ
ووارِثُـهُ فيهِ غداً يَتَـمَـتَّـعُ
كأَنَّ الحُماةَ المُشْفِقينَ عَلَيْكَ قَدْ
غَدَوْا بِكَ أَوْ رَاحـوا رَواحاً فأَبْرَعوا
ومـا هُوَ إلَّا النَّعْشُ لَوْ قَدْ دَعَوْا بِهِ
تُقَـلُّ فَتُـلْقـى فَوْقَـهُ ثُمَّ تُرْفَـعُ
ومـا هُوَ إلَّا حادِثٌ بَعْـدَ حادِثٍ
فَمِنْ أَيِّ أَنْـواعِ الحـوادِثِ تَجْزَعُ

أَلا وإِذا أُودِعْــتَ تَوْديعَ هالِــكٍ
فآخِــرُ يَوْمٍ مِنْــكَ يَوْمَ تُوَدَّعُ
أَلا وكَمــا شَيَّــعْتَ يَوْمــاً جَنــازَةً
فأَنْــتَ كَمــا شَيَّــعْتَهُــمْ سَتُشَيَّــعُ

وله :

فَلَوْ عَلاَ بِكَ أَقْــوامٌ مَنــاكِــبَــهُــمْ
حَثُّــوا بِنَعْشِــكَ إِسْراعــاً بِأَقْـدامِ
في يَوْمِ آخِــرِ تَوْدِيــعٍ تُوَدِّعُــهُ
تُهْــدَى إِلـى حَيْثُ لا فادٍ ولا حامِ

وله :

يا رُبَّ مَنْ كانَ مُغْتَــرّاً بِنــاصِــرِهِ
أَمْسى وأَصْبَحَ في الأَجْداثِ مَجْدولا
يا رُبَّ مُغْــتَــبِطٍ بِالْمــالِ يَأْكُــلُهُ
يَوْمــاً ويَشْــرَبُــهُ إِذْ صارَ مأْكــولا
ما زالَ يَبْكي عَلى المَــوْتى ويَنْقُلُهُمْ
حَتّــى رأَيْنــاهُ مَبْكِــيّــاً ومَنْقــولا

وله :

كأنْ قَدْ عَجَّلَ الأقْوامُ غَسْلَكْ
وقامَ النَّاسُ يَبْتَدِرونَ حَمْلَكْ

ونُجِّدَ بِالثَّرى لَكَ بَيْتُ هَجْرٍ
وأسْرَعَتِ الأَكُفُّ إِلَيْهِ نَقْلَكْ

وأسْلَمَكَ ابنُ عَمِّكَ فيهِ فَرْداً
وأرْسَلَ مِنْ يَدَيْهِ أخوكَ حَبْلَكْ

وحاوَلَتِ القُلوبُ سِواكَ ذِكْراً
أُنِسْنَ بِوَصْلِهِ ونَسِينَ وَصْلَكْ

وصارَ الوارِثونَ وأنْتَ صِفْرٌ
مِنَ الدُّنْيا لِمالِكَ مِنْكَ أمْلَكْ

إذا لَمْ تَتَّخِذْ لِلمَوْتِ زاداً
ولَمْ تَجْعَلْ بِذِكْرِ المَوْتِ شُغْلَكْ

فَقَدْ ضَيَّعْتَ حَظَّكَ يَوْمَ تُدْعى
وأصْلَكَ حينَ تَنْسِبُهُ وفَصْلَكْ

أراكَ تَغُرُّكَ الشَّهَواتُ قِدْماً
وكَمْ قَدْ غَرَّتِ الشَّهَواتُ مِثْلَكْ

أما ولَتَذْهَبَنَّ بِكَ المَنايا
كَما ذَهَبَتْ بِمَنْ قَدْ كانَ قَبْلَكْ

ولغيره:

وتَعُـــدُّ كَثْــرَةَ مَنْ يَمــوتُ تَعَجُّبــاً
عَمَّــا قَريبٍ سَوْفَ تَدْخُلُ في العَدَدْ
وأَراكَ تَحْـمِـلُهُـمْ ولَـسْـتَ تَرُدُّهُـمْ
وكــأنَّنــي بِكَ قَدْ حُمِـلْتَ ولا تُرَدّ

***

فصل
في مواعظ أخرى في الجنائز
منثورة ومنظومة

يروى أن آخر خطبة خطبها عمر بن عبد العزيز: أما بعد؛ فإن ما في أيديكم أسلاب الهالكين، وسيتركها الباقون كما تركها الماضون، **ألا ترون أنكم في كل يوم وليلة تشيعون غادياً أو رائحاً إلى الله تعالى؟!** وتضعونه في صدع من الأرض، ثم في بطن الصدع، غير ممهد ولا موسد، قد خلع الأسلاب، وفارق الأحباب، وأُسكن التراب، وواجه الحساب، فقير إلى ما قدم أمامه، غني عما ترك بعده.

ويروى أن الحسن نظر إلى صبية بين جنازة أبيها تقول: يا أبت! مثل يومك لم أره! فضمها الحسن وقال: **أي بنية! وأبوك مثل هذا اليوم لم يره!** فبكى الخلق.

وقال بعضهم: إنما صاحبي (يعني: في اتباع الجنازة) من يأخذ بعضدي ويقول: **انتبه فانظر إلى رأس أخيك كيف يبقى على السرير؟!**

ويروى أن أبا الدرداء كان إذا رأى جنازة قال: **اغدي فإنا**

رائحون، أو قال: **روحي فإنا غادون**.

وسمع رجلاً يقول في جنازة: من هذا؟ قال: **أنت، وإن كرهت فأنا**.

وهذا كما قيل:

لو كَلَّمَ المَيْتُ مَنْ يُشَيِّعُهُ
لَقالَ لا تَغْتَرِرْ فأَنْتَ أنا
قَد كُنْتُ أَلْهو وغَرَّني أَمَلي
عاجَلَني المَوْتُ ما بَلَغْتُ مُنى

وقيل لبعضهم في مرضه: كيف تجدك؟ فأنشد:

خَرَجْتُ مِنَ الدُّنْيا وقامَتْ قِيامَتي
غَداةَ أَقَلَّ الحامِلونَ جَنازَتي
وعَجَّلَ أَهْلي حَفْرَ قَبْري وصَيَّروا
خُروجي وتَعْجيلي إِلَيْهِ كَرامَتي
كأَنَّهُمو لَمْ يَعْرِفوا قَطُّ صُحْبَتي
غَداةَ أَتى يَوْمي عَلَيَّ وساعَتي

وقال الزمخشري: للإنسان عند الإشراف على الموت حركة من حدوث قوة؛ نحو ما يعرض للسراج عند انطفائه من حركة سريعة، وضياء ساطع، وتسميها الأطباء: **النعشة الأخيرة**.

ثم قال من نظمه:

قولا لِشَيْخٍ هَزَّ مِنْ عِطْفِهِ
أَنْ نَعَّشَتْهُ دَوْلَةٌ زاهِرَه

لا تَغْتَرِرْ فالمَرْءُ يُرْمى بِهِ
في النَّعْشِ بَعْدَ النَّعْشَةِ الآخِرَه

وقال عمرو بن العلاء: جلست إلى جرير وهو يملي على كاتبه شعراً، فطلعت جنازة فأمسك وقال: شيبتني والله هذه الجنائز، وأنشأ يقول:

تُرَوِّعُنا الجَنائِزُ مُقْبِلاتٍ
ونَلْهو حينَ تَذْهَبُ مُدْبِراتِ

كَرَوْعَةِ ثَلَّةٍ(١) لِمُغارِ ذِئْبٍ
فَلَمَّا غابَ عادَتْ راتِعاتِ

وهذا كما قال بعضهم:

إذا ما رأَيْتُمْ مَيِّتينَ جَزِعْتُمُ
وإنْ لَمْ تَرَوْا مِلْتُمْ إلى صَبَواتِها

وكما قال غيره:

---

(١) الثَّلة: الجماعة من الغنم.

وَإنْ لاحَ لَكَ النَّقْشُ مِنَ الأصْفَرِ تَهْتَشُّ[1]
وَإنْ مَرَّ بِكَ النَّعْشُ تَغامَمْتَ وَلا غَمُّ

ولكعب بن زهير:

كُلُّ ابنِ أُنْثى وإنْ طالَتْ سلامَتُهُ
يَوْماً على آلَةٍ حَدْباءَ مَحْمولُ

ومما ينسب لزين العابدين:

وَأَخْرَجُونِي مِنَ الدُّنْيا فَوا أَسَفاً
عَلَى رَحِيلٍ بِلاَ زَادٍ يُبَلِّغُنِي
وَحَمَّلونِي عَلَى الأكْتَافِ أرْبَعَةً
مِنَ الرِّجالِ وَخَلْفِي مَنْ يُشَيِّعُنِي
يَا نَفْسُ كُفِّي عَنِ العِصْيانِ وَاكْتَسِبي
فِعْلاً جَمِيلاً لَعَلَّ اللَّهَ يَرْحَمُنِي

ومما ينسب للشافعي:

تَبْغِي النَّجاةَ وَلَمْ تَسْلُكْ طَرِيقَتَها
إنَّ السَّفِينَةَ لا تَجْرِي عَلَى اليَبَسِ

(١) (الأصفر) الدينار، ونقشه: ما كُتب عليه، و(تهتش): تخف وتهتز طرباً.

رُكُــوبُــكَ النَّعْشَ يُنْسِيـكَ الـرُّكُوبَ عَلَى
مَا كُنْتَ تَرْكَبُ مِنْ بَغْـلٍ وَمِنْ فَرَسِ [1]

ولغيره:

كَمْ لِلْمَــنِــيَّةِ مِنْ ضُروبْ بَيْنَ الحَــوادِثِ والخُـطوبْ
تَدَعُ الـحَـبيبَ بِلا مُحِـبْ بِ والـمُـحِـبَّ بِلا حَبيبْ
مَا لِلنُّفــوسِ مَعَ الـمَـنِيْـ ـيَةِ في السَّلامَةِ مِنْ نَصيبْ
مَنْ دَبَّ فَوقَ الأَرْضِ أَصْـ ـبَـحَ دَارِجـاً بَعْـدَ الـدَّبيبْ
لَا تَيْأَسَــنَّ مِنَ الـبَـعِـيـ ـدِ وخَفْ مُبـاعَـدَةَ القَريبْ
فَلَكَـمْ حَمَلْتَ مَعَ المَـريـ ـضِ إلى الثَّرى نَعْشَ الطَّبيبْ

ولأبي العتاهية:

أَتَـجْـمَـعُ مالاً لا تُقَــدِّمُ بَعْـضَــهُ
لِنَـفْـسِــكَ ذُخْـراً إِنَّ ذا لَسُقــوطُ
كأَنَّكَ قَدْ جُهِّزْتَ تُهْدى إلى الـبلى
لِنَفْسِـكَ في أَيْـدي الـرِّجالِ أَطيطُ
وعَــايَنْــتَ هَوْلاً لا يُعَــايَنُ مِثْـلُهُ
وقُــدْرَةَ رَبٍّ بِالـعِـبـادِ تُحـيطُ

---

(١) وينسيك كل مركب من سيارة «مرسيدس» و«أمريكي» و«بي أم» وغيرها!

وصِرْتَ إلى دارٍ هِيَ الدَّارُ لا الَّتي
أَقَمْتَ بها حَيّاً وأَنْتَ نَشيطُ
مَحَلٌّ بِهِ الأَقْدامُ وَيْحَكَ تَسْتَوي
وصِيدٌ كِرامٌ سادَةٌ ونَبيطُ[1]

وله:

تَمُرُّ بِعَسْكَرِ المَوْتى وقَلْبُكَ مِنْهُ لا يَجِفُ
كأَنَّ مُشَيِّعيكَ وقَدْ رَمَوْا بِكَ ثَمَّ وانْصَرَفوا

وله:

نَهْنِهْ دُموعَكَ كُلُّ حَيٍّ فانِ
واصْبِرْ لِقَرْعِ نَوائِبِ الحِدْثانِ
يا دارِيَ الحَقَّ الَّتي لَمْ أَبْنِها
فيما أُشَيِّدُهُ مِنَ البُنْيانِ
كَيْفَ العَزاءُ ولا مَحالَةَ إِنَّني
يَوْماً إِلَيْكِ مُشَيِّعي إِخْواني

---

(١) (الصِّيد) هنا ـ والله أعلم ـ: الملوك، جمع أَصْيَد، وهو الذي لا يلتفت يميناً ولا شمالاً، وكذلك يقال للذي لا يلتفت لعِلّة: أَصْيَد. و(النبيط): النَّبَط والأنباط.

ومعنى البيت: أن القبر تستوي فيه الناس؛ لا فرق بين الملوك السادة والأنباط؛ فكلهم تحت التراب.

نَعْشاً يُكَفْكِفُهُ الرِّجالُ وفَوْقَهُ
جَسَدٌ يُباعُ بِأَوْكَسِ الأَثْمانِ

وله :

إنَّما الدُّنْيا مُناخٌ لِرَكْبٍ
يُسْرِعُ الحَثَّ بِسَرْعِ الرِّحالِ
رُبَّ مُغْتَرٍّ بِها قَدْ رَأَيْنا
نَعْشَهُ فَوْقَ رِقابِ الرِّجالِ
مَنْ رَأَى الدُّنْيا بِعَيْنَيْ بَصيرٍ
لَمْ تَكَدْ تَخْطُرُ مِنْهُ بِبالِ

وله :

رُبَّ مَذْكورٍ لِقَوْمٍ	غابَ عَنْهُمْ فَنَسُوهُ
وإذا أَفْنى سِنيـ	ـهِ المَرْءُ أَفْنَتْهُ سُنوهُ
وكَأَنْ بِالمَرْءِ قَدْ يَبْـ	ـكي عَلَيْهِ أَقْرَبوهُ
وكَأَنَّ القَوْمَ قَدْ قا	موا فَقالوا أَدْرِكوهُ
سَائِلوهُ كَلِّموهُ	حَرِّكوهُ لَقِّنوهُ
حَرِّفوهُ وَجِّهوهُ	مَدِّدوهُ غَمِّضوهُ
عَجِّلوهُ لِرَحيلٍ	عَجِّلوا لا تَحْبِسُوهُ
ارْفَعوهُ غَسِّلوهُ	كَفِّنوهُ حَنِّطوهُ

فإِذا ما لُفَّ في الأَكْـ ـفانِ قالـوا فاحْـمِلوهُ
أَخْـرِجـوهُ فَوْقَ أَعْـوا دِ الـمَـنـايـا شَيِّـعوهُ
فإِذا صَلَّوا عَلَيْهِ قيلَ هاتـوا واقْـبُـروهُ
فإِذا ما اسْـتَـوْدَعـو هُ الأَرْضَ رهْـنـاً تَركـوهُ
خَلَّفـوهُ تَحْـتَ رَمْسٍ أَوقَـروهُ أَثْـقَـلوهُ
أَبْـعَـدوهُ أَسْـحَـقـوهُ أَوْحَـدوهُ أَفْـرَدوهُ
وَدَّعـوهُ فارَقـوهُ أَسْـلَمـوهُ خَلَّفـوهُ
وانْـثَـنَـوْا عَنْـهُ وخَـلَّو هُ كأَنْ لَمْ يَعْـرِفـوهُ
وكـأَنَّ الـقَـوْمَ فيمـا كانَ فيهِ لَمْ يَلوهُ

ولأحمد بن موسى الثقفي :

فَتـىً مالَـتْ بِهِ الـدُّنْـيا وغَـرَّتْـهُ بِبـارِقِـهـا
فلاذَ بِهـا وعـانَـقَـهـا وبِئْـسَـتْ عِرْسُ عاشِقِهـا
غَدا يَوْمـاً لِضَـيْـعَـتِـهِ لِيُصْـلحَ مِنْ مَرافِـقِـهـا
فَلَمّـا جاءَ والـشَّـمْـ سُ تُزْهِـرُ في مَشـارِقِهـا
تَلَقَّـتْـهُ جَداوِلُـهـا تَفَـجَّـرُ في حَدائِـقِـهـا
وأَطْـرَفَ مِنْ طَرائِـفِـهـا جَنِـيّاً مِنْ بَواسِـقِـهـا
وجـيءَ بِخَـيْرِهـا ثَمَـراً وأَطْـيَبِـهـا لِذائِـقِـهـا
وأَطْـعُـمُـهُ مُؤَلَّـفَـةٌ يُبـايِنُ في مَذائِـقِـهـا
فأَمْـعَـنَ في ثَرايِدِهـا وأَكْـثَـرَ مِنْ شَرائِـقِـهـا

وجـــيءَ بِقَهْــوَةِ حُرْفٍ[1] تُســـاقُ بِكَــفٍّ سائِــقِهـــا
بِكَــفَّــيْ طِفْــلَةٍ خَوْدٍ[2] تَثَنَّى في مَخــانِقِهـــا[3]
فَحَــدَّث نَفْــسَــهُ كَذِبــاً وزوراً غَيْرَ صادِقِــهـــا
ومَـــنَّـــاهـــا الـــخُلودَ لَهـــا غَبِـيّاً عَنْ بَوائِــقِــهــا[4]
فأَصْبَــحَ هالِــكــاً فيهـــا على أَدْنــى نَمــارِقِــهـــا
ولاذَ بِنَـعْـشِــهِ عُصَــبٌ يَسـيــرُ على عَواتِــقِــهـــا
إِلـى دارِ الــبِــلى فَرْداً وَحيــداً في مَضــائِقِهـــا
أَلا إِنَّ الأُمــورَ غَداً تَصـيرُ إِلـى حَقـائِقِهـــا

ولأبي إسحاق الإلبيري:

سأَضْرِبُ فُسْطاطي على عَسْكَرِ البِلى
وأَرْكُــزُ فيهِ للنُّــزولِ قَنــاتـــي

---

(١) (الحرف): كل ما فيه حرارة ولذع، و(الحرف): حب الرشاد. «وسيط».

(٢) (الخود): الفتاة الحسنة الخَلق الشابة. وقيل: الجارية الناعمة. والجمع خَودات وخُود. «لسان».

(٣) لعلها جمع خِناق؛ وهي القلادة توضع على المُخَنَّق؛ وهو موضع الخِناق.

(٤) (البائقة): الداهية، يقال للداهية والبلية تنزل بالقوم: أصابتهم بائقة. «لسان».

وأَرْكَبُ ظَهْراً لا يَؤوبُ بِراكِبٍ
ولا يُمْتَطى إلَّا إلى الهَلَكاتِ

وَلَيْسَ يُرى إلَّا بِساحَةِ ظاعِنٍ
إلى مَصْرَعِ الفَرْحاتِ والتَّرَحاتِ

يُسَيِّرُ أَدْنى النَّاسِ سَيْراً كَسَيْرِهِ
بأَرْفَعِ منعِيِّ مِنَ السَّرَواتِ

فَطَوْراً تَراهُ يَحْمِلُ الشُّمَّ والرُّبى
وطَوْراً تَراهُ يَحْمِلُ الحَصَياتِ

فَيا إِخْوَتي مَهْما شَهِدْتُمْ جَنازَتي
فَقوموا لِرَبِّي واسْأَلوهُ نَجاتي

وجِدُّوا ابْتِهالاً في الدُّعاءِ وأَخْلِصوا
لَعَلَّ إِلٰهي يَقْبَلُ الدَّعَواتِ

وله :

تَمُرُّ لِداتِي(١) واحِداً بَعْدَ واحِدٍ
وأَعْلَمُ أَنِّي بَعْدَهُمْ غَيْرُ خالِدِ

وأَحْمِلُ مَوْتاهُمْ وأَشْهَدُ دَفْنَهُمْ
كأَنِّي بَعيدٌ مِنْهُمُ غَيْرُ شاهِدِ

---

(١) أي : أترابي ، مفردها لِدَة ، ولِدَةُ الرجل : مَن وُلِدَ معه ، وكان في سِنّه .

فَهــا أنــا في عِلْمي بِهِمْ وجَهــالَتي
كَمُــسْتَــيْقِظٍ يَرْنــو بِمُــقْــلَةِ راقِــدِ

ولأندلسي غيره:

إلــى كَمْ أَقــولُ ولا أَفْــعَــلُ
وكَــمْ ذا أَحــومُ ولا أَنْــزِلُ
وأَزْجُــرُ عَيْنــي فلا تَرْعَــوي
وأَنْــصَــحُ نَفْــســي فلا تَقْــبَــلُ
وكَــمْ ذا تُعَــلِّلُ لي وَيْحَــهــا
بِعَــلَّ وسَــوْفَ وكَــمْ تَمْــطِلُ
وكَــمْ ذا أُؤَمِّــلُ طولَ الــبَــقــا
وأَغْــفُــلُ والــمَــوْتُ لا يَغْــفُــلُ
وفــي كُلِّ يَوْمٍ يُنــادي بنــا
مُنــادي الــرَّحــيلِ ألا فارْحَــلوا
كأنْ بِي وَشيكــاً إلــى مَصْــرَعي
يُســاقُ بِنَــعْــشــي ولا أُمْــهَــلُ

* * *

الخاتمة

وبعد؛ أخي القارىء! فقد علمت أنك لن تنتفع برؤية الجنائز ما دمت تراها لغيرك، ولا تحسب وتتفكر أنك ستكون مثله، وأنك كما شيّعت جنازته ستُشَيَّع جنازتك؛ كما قيل:

وإذا حَمَلْتَ إلى القُبورِ جَنازَةً
فاعْلَمْ بِأَنَّكَ بَعْدَها مَحْمولُ

وكما قيل:

فَقُلْ لِلَّذي قَدْ عاشَ بَعْدَ قَرينِهِ
إلى مِثْلِها عَمَّا قَليلٍ سَتُدْفَعُ

فَكُلُّ ابْنِ أُنْثَىٰ سَوْفَ يُفْضي إلى الرَّدَىٰ
وَيَرْفَعُهُ بَعْدَ الأَرائِكِ شَرْجَعُ(١)

وأيضاً؛ لو حسبت ذلك وتنبهت له؛ فإنك كذلك لن تنتفع ما دمت تراه بعيداً، وهذا ما يعبر عنه بطول الأمل - كما تقدم

---

(١) (الشرجع): النعش.

التنبيه عليه ـ.

ومنه ينشأ ترك الطاعة، وفعل المعصية، والانهماك في جمع حطام الدنيا الفاني؛ فتنسى الآخرة ولا بد، ويقسو القلب؛ فلا تنجع فيه المواعظ، ولا تعمل فيه المذكِّرات؛ كما قال الله سبحانه:

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذينَ آمَنوا أَنْ تَخْشَعَ قُلوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وما نَزَلَ مِنَ الحَقِّ ولا يَكونوا كالَّذينَ أُوتوا الكِتابَ مِنْ قَبْلُ فَطالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلوبُهُمْ وكَثيرٌ مِنْهُمْ فاسِقونَ﴾ [الحديد: ١٦].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ:

«هٰذا ابْنُ آدَمَ وهٰذا أَجَلُهُ»، ووضع يده عند قفاه، ثم بسطها فقال: «وثَمَّ أَمَلُهُ، وثَمَّ أَمَلُهُ، وثَمَّ أَمَلُهُ»(١).

يعني: ما أبعد أمل الإنسان! وما أقرب أجله!

وعن عبد الله بن الشِّخِّير رضي الله عنه، عن النبي ﷺ؛

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٣٤) وغيره، وهو في «صحيح الجامع» برقم (٦٨٦٠)، وأخرجه البخاري في «صحيحه» (١١ / ٢٣٦ ـ فتح) من طريق أخرى؛ عن أنس بن مالك قال: خط النبي ﷺ خطوطاً فقال: «هٰذا الأَمَلُ، وهٰذا أَجَلُهُ، فَبَيْنَما هُوَ كَذٰلِكَ إِذْ جاءَهُ الخَطُّ الأَقْرَبُ».

قال:

«مَثَـلُ ابْنِ آدَمَ وإلى جَنْبِـهِ تِسْعٌ وتِسْعونَ مَنِيَّةً، إنْ أَخْطأَتْهُ المَنايا؛ وَقَعَ في الهَرَمِ حَتَّى يَموتَ»(١).

وقيل لحكيم: ما أبعـد الأشياء من النـاس؟ قال: الأمل. فقيل: وما أقرب الأشياء منهم؟ فقال: الأجل.

وقيل: لو ظهرت الآجال؛ لافتُضحت الآمال.

وقيل: يا ابن آدم! لو رأيت ما بقي من أجلك؛ لزهدت في طول أملك.

وفي «تاريخ بغداد»: عن محمد بن نعيم بن الهيصم؛ قال: دخلت على بشـر في علته فقلت: عظني. فقال: إن في هذه الدار نملة تجمع الحب في الصيف لتأكله في الشتاء، فلما كان يوم أخذت حبة في فمها، فجاء عصفور فأخذها والحبة، فلا ما جمعت أكلت، ولا ما أمَّلت نالت!

وفي «الحلية» لأبي نعيم: مَرَّ مالـك بن دينـار على رجـل يغرس فسيلاً، فعبر عنه يسيراً ثم مرَّ بالفسيل وقد أُطعم، فسأل عن الذي غرسه، فقالوا: مات. ثم أنشأ يقول:

---

(١) أخرجه الترمذي (٢١٥٠) وغيره، وهو في «صحيح الجامع» برقم (٥٧٠١).

مُؤَمِّـلُ دُنْـيا لِتَبْـقـى لَهُ
فَمـاتَ المُـؤَمِّـلُ قَبْـلَ الأَمَـلْ

يُرَبِّـي فَسـيلاً ويُعْـنـى بِهِ
فَعـاشَ الفَسيلُ ومـاتَ الـرَّجُـلْ

ويروى أن سيبويه تمثل بهذين البيتين عند موته.

ويروى أن الحسن قيل له: إن فلاناً مات بغتة! فقال: ما يعجبكم من ذلك؟! لو لم يمت بغتة مرض بغتة، ثم مات!

وفي «لطائف المعارف»: غفلة الإنسان عن الموت مع أنه لا بد له منه من العجب، والمُوجب لها طولُ الأمل.

وفيه: يا مغروراً بطول الأمل! يا مسروراً بسوء العمل! كن من الموت على وجل، فما تدري متى يهجم الأجل؟!

قال بعض السلف: كم من مستقبل يوماً لا يستكمله، ومن مؤمل غداً لا يدركه؟! إنكم لو رأيتم الأجل ومسيره؛ لأبغضتم الأمل وغروره.

وفيه:

أُؤَمِّـلُ أَنْ أُخَـلَّدَ والـمَـنـايا
تَدورُ عَلَيَّ مِنْ كُلِّ الـنَّـواحـي

ومــا أَدْري وإنْ أَمْــسَــيْتُ يَوْمــاً
لَعَـلِّيَ لا أَعيشُ إلـى الـصَّـبــاحِ

وفي «المدهش»: يا طويل الأمل في قصير الأجل! أما رأيت مستلَباً وما كمل؟! أتؤخر الإنابة وتعجل الزلل؟!

يا مَنْ يُعِــدُّ غَداً لِتَـوْبَـتِـهِ
أَعَــلى يَقــينٍ مِنْ بُلوغِ غَدِ
الــمَــرْءُ في زَلَــلٍ على أَمَــلٍ
ومَــنِـيَّةُ الإِنْــســانِ بِالــرَّصَــدِ
أَيَّامُ عُمْــرِكَ كُلُّهــا عَدَدُ
ولَــعَــلَّ يَوْمَــكَ آخِــرُ الــعَــدَدِ

ولأبي العتاهية:

يَا نَفْسُ قَدْ أَزِفَ الــرَّحِــيلْ
وَأَظَــلَّكِ الــخَــطْبُ الــجَــلِيلْ
فَتَــأَهَّــبِــي يَا نَفْسُ لاَ
يَلْعَــبْ بكِ الأَمَــلُ الــطَّويلْ
فَلَتَــنْــزِلَــنَّ بِمَــنْــزِلٍ
يَنْــسَــى الــخَــلِيْلَ بِهِ الــخَــلِيلْ

وله:

لَا يَذْهَبَنَّ بِكَ الأَمَلْ
حَتَّى تُقَصِّرَ فِي العَمَلْ
فَكَأَنَّ يَوْمَكَ قَدْ أَتَى
يَسْعَى إِلَيْكَ عَلَى عَجَلْ

ولمحمد بن عثيمين:

هُوَ المَوْتُ مَا مِنْهُ مَلاذٌ وَمَهْرَبُ
مَتَى حُطَّ ذَا عَنْ نَعْشِهِ ذَاكَ يَرْكَبُ
نُشَاهِدُ ذَا عَيْنَ اليَقِينِ حَقِيقَةً
عَلَيهِ مَضَى طِفْلٌ وَكَهْلٌ وَأَشْيَبُ
وَلٰكِنْ عَلَا الرَّانُ القُلُوبَ كَأَنَّنَا
بِمَا قَدْ عَلِمْنَاهُ يَقِيناً نُكَذِّبُ
نُؤَمِّلُ آمَالاً وَنَرْجُو نَتَاجَهَا
وَعَلَّ الرَّدَىٰ مِمَّا نُرَجِّيهِ أَقْرَبُ
إِلَى اللَّهِ نَشْكُو قَسْوَةً فِي قُلُوبِنَا
وَفِي كُلِّ يَوْمٍ وَاعِظُ المَوْتِ يَنْدُبُ
وَلِلَّهِ كَمْ غَادٍ حَبِيبٍ وَرَائِحٍ
نُشَيِّعُهُ لِلْقَبْرِ وَالدَّمْعُ يَسْكُبُ
لِكُلِّ اجْتِمَاعٍ مِنْ خَلِيلَيْنِ فُرْقَةٌ
وَلَوْ بَيْنَهُمْ قَدْ طَابَ عَيْشٌ وَمَشْرَبُ

فصل

وفي التنبيهين المذكورين آنفاً قال بعض الحكماء: اعلم أن الجنائز عبرة للبصير، وفيها تنبيه وتذكير لا لأهل الغفلة؛ فإنها لا تزيدهم مشاهدتها إلا قساوة؛ لأنهم يظنون أنهم أبداً إلى جنازة غيرهم ينظرون، ولا يحسبون أنهم لا محالة على الجنائز يحملون، أو يحسبون ذلك ولكنهم على القرب لا يُقَدِّرون، ولا يتفكرون أن المحمولين على الجنائز هكذا كانوا يحسبون، فبطل حسابهم وانقرض على القرب زمانهم، فلا ينظر عبد إلى جنازة إلا ويقدر نفسه محمولاً عليها؛ فإنه محمول عليها على القرب، وكأن قد، ولعله في غد أو بعد غد.

ويروى عن أبي هريرة؛ أنه كان إذا رأى جنازة قال: **امضوا فإنا على الأثر.**

وكان مكحول الدمشقي إذا رأى جنازة قال: **اغدوا فإنا رائحون، موعظة بليغة، وغفلة سريعة، يذهب الأول، والآخر لا عقل له.**

وقال أسيد بن حضير: **ما شهدت جنازة فحدثتني نفسي بشيء سوى ما هو مفعول به، وما هو صائر إليه.**

وقال الأعمش: **كنا نشهد الجنائز فلا ندري من نعزي؟!**

لحزن الجميع.

وقال ثابت البناني: **كنا نشهد الجنائز فلا نرى إلا متقنعاً باكياً [أو متقنعاً متفكراً]**.

فهكذا كان خوفهم من الموت، والآن لا ننظر إلى جماعة يحضرون جنازة إلا وأكثرهم يضحكون ويلهون، ولا يتكلمون إلا في ميراثه وما خلفه لورثته، ولا يتفكر أقرانه وأقاربه إلا في الحيلة التي بها يتناول بعض ما خلفه، ولا يتفكر واحد منهم - إلا ما شاء الله - في جنازة نفسه وفي حاله إذا حمل عليها، ولا سبب لهذه الغفلة إلا قسوة القلوب بكثرة المعاصي والذنوب، حتى نسينا الله تعالى واليوم الآخر والأهوال التي بين أيدينا؛ فصرنا نلهو ونغفل ونشتغل بما لا يعنينا. انتهى كلامه.

وأخيراً أيها القارىء الحبيب! أسأل الله تعالى أن يعيننا وإياك على الخروج من هذه الغفلة، والاستعداد ليوم النقلة، فلمثل تلك الساعة فلْنُعِدّ، ومن أجلها فلنعمل.

وقد قال البراء بن عازب رضي الله عنه: بينما نحن مع رسول الله ﷺ؛ إذ بصر بجماعة فقال:

«عَلاَمَ اجْتَمَعَ هٰؤلاءِ؟». قيل: على قبرٍ يحفرونه. قال: ففزع رسول الله ﷺ، فبدر بين يدي أصحابه مسرعاً حتى انتهى

إلى القبر، فجثا عليه. قال: فاستقبلته من بين يديه لأنظر ما يصنع، فبكى حتى بلّ الثرى من دموعه، ثم أقبل علينا، قال:

«أَيْ إِخْواني! لِمِثْلِ اليَوْمِ فأَعِدُّوا»[1].

ولأبي إسحاق الإلبيري:

كَمْ آمِنٍ للمَنونِ لاهٍ
عَنِ الرَّدى باتَ مُطْمَئِنّا
صَبَّحَهُ وافِدُ المَنايا
فَعايَنَ المَوْتَ حينَ عَنّا
حَتّى إذا ما قَضى بُكاهُ
حَميمُهُ مُعْوِلاً مُرِنّا
وَارَوْهُ في لَحْدِهِ وسَنُّوا
عَلَيْهِ قَيْدَ التُّرابِ سَنّا
وانْتَهَبوا مالَهُ وشَنُّوا الـ
غاراتِ فيما حَواهُ شَنّا
لِمِثْلِ هذا فَكُنْ مُعِدّاً
ما قَدْ أَعَدَّ السُّهداةُ مِنّا

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤١٩٥)، وأحمد (٤ / ٢٩٤) واللفظ له، وغيرهما، وحسن إسناده الألباني في «الصحيحة» (رقم ١٧٥١).

وارْتَقِبِ المَوْتَ فَهْوَ حَتْمٌ
يَخْتَرِمُ الطِّفْلَ والمُسِنَّا

وله لله دره!

ألا خَبَرٌ بِمُنْتَزحِ النَّواحي
أطيرُ إِلَيْهِ مَنْشورَ الجَناحِ
فأَسْأَلُهُ وأَلْطِفُهُ عَساهُ
سَيَأْسو ما بِديني مِنْ جِراحِ
ويَجْلو ما دَجا مِنْ لَيْلِ جَهْلي
بِنورِ هُدىً كَمُنْبَلِجِ الصَّباحِ
فأَبْصُقُ في مُحَيَّا أُمِّ دَفْرٍ(١)
وأَهْجُرُها وأَدْفَعُها بِراحي
وأَصْحو مِنْ حُمَيَّاها وأَسْلو
عَفافاً عَنْ جَآذِرِها المِلاحِ
وأَصْرِفُ هِمَّتي بالكُلِّ عَنْها
إلى دارِ السَّعادَةِ والنَّجاحِ
أفي السِّتِّينَ أَهْجَعُ في مَقيلي
وحادي المَوْتِ يُوْقِظُ للرَّواحِ

(١) (أم دفر): الدنيا، قيل لها ذلك لِنَتْنها، من الدَّفَر، وهو النَّتن.

وقَـدْ نَشَـرَ الـزَّمـانُ لِواءَ شَيْبـي
لِيَطْوِيَنـي ويَسْـلُبَـني وِشاحـي
وقَـدْ سَلَّ الـحِمـامُ عَلَيَّ نَصْـلاً
سَيَقْـتُلُني وإنْ شاكَتْ سِلاحـي
ويَـحْمِلُني إلى الأَجْـداثِ صَحْبي
إلـى ضِيقٍ هُنـاكَ أوِ انْفِسـاحِ
فأُجْـزى الـخَيْرَ إنْ قَدَّمْتُ خَيْراً
وشَـرّاً إنْ جُزيتُ على اجْتِـراحي
وهـا أنـا ذا على عِلْمـي بهـذا
بَطيءُ الشَّـأْوِ في سَنَنِ الصَّـلاحِ
ولـي شَأْوٌ بِمَـيْدانِ الـخَـطايا
بَعـيدٌ لا يُبـارى بِالـرِّياحِ
فَلَوْ أنِّـي نَظَرْتُ بعَـيْنِ عَقْـلي
إذَنْ لَقَـطَعْتُ دَهْـري بِالـنِّياحِ
ولَـمْ أَسْحَبْ ذُيولي في التَّصـابي
ولَـمْ أَطْـرَبْ بِغـانِـيَةٍ رَداحِ
وكُـنْـتُ الـيَوْمَ أَوّابـاً مُنـيبـاً
لَعَـلِّي أَنْ تَفـوزَ غَداً قِداحـي
إذا ما كُنْـتُ مَكبـولَ الـخَـطايا
وعـانِـيَهـا فَمَـنْ لي بالـبَـراحِ

فَهَلْ مِنْ تَوْبَةٍ مِنْها نَصوحٍ
تُطَيِّرُني وتَأْخُذُ لي سَراحي
فَيا لَهْفي إذا جُمِعَ البَرايا
على حَرَبي لَدَيْهِمْ وافْتِضاحي
ولَوْلا أَنَّني أَرْجو إلهي
ورَحْمَتَهُ يَئِسْتُ مِنَ الفَلاحِ

ولأبي العتاهية:

يا ساكِنَ الحُجُراتِ ما	لَكَ غَيْرَ قَبْرِكَ مَسْكَنُ
اليَوْمَ أَنْتَ مُكاثِرٌ	ومُفاخِرٌ تَتَزَيَّنُ
وغَداً تَصيرُ إلى القُبو	رِ مُحَنَّطٌ ومُكَفَّنُ
أَحدِثْ لِرَبِّكَ تَوْبَةً	فَسَبيلُها لَكَ مُمْكِنُ
واصْرِفْ هَواكَ لِخَوْفِهِ	مِمَّا تُسِرُّ وتُعْلِنُ
فَكَأَنَّ شَخْصَكَ لَمْ يَكُنْ	في النَّاسِ ساعَةَ تُدْفَنُ
وكَأَنَّ أَهْلَكَ قَدْ بَكَوْا	جَزَعاً عَلَيْكَ وَرَنَّنوا
فإذا مَضَتْ لَكَ جُمْعَةٌ	فَكَأَنَّهُمْ لَمْ يَحْزَنوا
والنَّاسُ في غَفَلاتِهِمْ	ورَحى المَنِيَّةِ تَطْحَنُ
ما دونَ دائِرَةِ الرَّدى	حِصْنٌ لِمَنْ يَتَحَصَّنُ

ولغيره:

يا نَفْسُ تُوبي فَإِنَّ المَـوْتَ قَدْ حانا
واعْصي الهَوى فالهَوى ما زالَ فَتَّانا
أَمَ تَرَيْنَ الـمَـنـايا كَيْفَ تَلْقُـطُنـا
لَقْـطاً وتُـلْحِقُ أُخْـرانـا بِأُولانـا
في كُلِّ يَوْمٍ لَنـا مَيْـتٌ نُشَيِّعُـهُ
نَرى بِمَصْـرَعِـهِ آثـارَ مَوْتـانـا
يا نَفْسُ ما لي ولِـلأَمْـوالِ أَتْـرُكُهـا
خَلْفي وأَخْـرُجُ مِنْ دُنْيايَ عُرْيانـا
ما بالُنـا نَتَعـامى عَنْ مَصـائِرِنـا
نَنْسى بِغَفْلَتِنـا مَنْ لَيْسَ يَنْسـانـا
يا راكِضـاً في مَيادينِ الهَـوى مَرِحاً
ورافِـلاً في ثِيابِ الـغَيِّ نَشْـوانـا
مَضى الزَّمانُ وَوَلَّى العُمْرُ في لَعِبٍ
يَكْفيكَ ما قَدْ مَضى قَدْ كانَ ما كانا

انتهى الكتاب، والحمد لله أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً، وصلى الله على النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم.

وكتب

محمد شومان

* * *

الفهرس

* * *

التنضيد والمونتاج
دار الحسن للنشر والتوزيع
هاتف ٦٤٨٩٧٥ = فاكس ٦٤٨٩٧٥ = ص.ب ١٨٢٧٤٢
عمان ١٨ ١١١ = الأردن